
سائح فى رياض القرآن
تأليف
دكتور محمود محمد عم
أستاذ بجامعة الأزهر
مكتبة الإيما
المنصورة - أمام جامعة ال
ت : ٣٥٧٨٨٢

الأخ العزيز الأستاذ ابراهيم سلامة
- رمزا للصداقة لا تنفصم عراها
محمود عمارة

سائح فى رياض القرآن

تأليف

دكتور: محمود محمد محمد عمارة

جامعة الأزهر

مكتبة الإيمان

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

ت : ٣٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى

١٩٩٧م - ١٤١٧ هـ

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع بالمنصورة

أمام جامعة الأزهر

ت: ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ما يزال هذا المشهد يلح على خاطرى:

مشهد هذه المجموعة.. التى تعلقت قلوبهم بالمسجد.. فكانت لهم جلسات مباركات بعد صلاة المغرب.. يتلون من كتاب الله تعالى حصة مقررة.. لابد من إتمامها.. وكنت أزورهم أحياناً..

لكن الليلة التى كنت أزورهم فيها.. كانت هى الليلة الوحيدة التى لا يتمون فيها نصاب القراءة كما اتفقوا !؟

ولعلى كنت أحس ببعض الحرج.. يتراءى فى عيون بعضهم ممن يحسبون وجودى عائقا.. يحول بينهم وبين تمام الحصة التى يريدون!

وفى وقفة للدفاع عن النفس.. أو الدفاع عن القرآن الكريم كنت أقول لهم: إذا كان للقراءة جلسة.. فينبغى أن يكون للتدبر جلسات..!

جلسات.. نحاول فيها فهم مرامى الآيات.. وما فيها من دروس.. لا بد منها لترقية الحياة.. وتسديد مسيرها..

وإذا كان مع القراءة.. الاستماع.. فإن مع التدبر الاستمتاع !!

الاستمتاع بما ضُمَّت عليه آى القرآن من كنوز.. لا بد من الغوص وراءها.. واستخراجها ما فيها من حلية نجمِّل بها القبيح من أمور حياتنا..

ولقد قيل لابن المبارك يوما: فلان يختم القرآن كله فى ليلة واحدة !!

فأجاب على الفور: ولكنى أعرف من وقف عند آية واحدة.. حتى الفجر.. لم يغادرها.. [ويقصد نفسه].

لقد كان رحمه الله تعالى يبدأ فى الآية الكريمة.. فإذا هو منها فى بستان مورق.. مونق.. لا يدرى ماذا يأخذ.. وماذا يدع ؟!

وهكذا كانت مدرسة ابن المبارك.. فى تعاملها مع القرآن الكريم:

قراءة .. وتلاوة .. وتدبرا..

يحشد لذلك كل مداركه.. فإذا القرآن حياته ومماته..

وبين هذا الذى كان يتلوه فى ليلة.. وبين ابن المبارك.. درجات ودرجات..

يتقلب فيها المسلمون. وكل حسب طاقته.. وأشواقه.

يعطيهم القرآن الكريم من لدنه على قدر هذه الطاقة.. وعلى قدّ ذلك الشوق!

وما أنا إلا واحد من هذه الجماهير الفقيرة .. أحاول أن أفهم الآية على قدر ما أتيح لى من الضوء.. ثم أستثمر ما فهمت لإصلاح ما أفسد الناس من شئون حياتهم..

وهذه المحاولات بين يديك أيها القارئ العزيز الآن..

بعضها.. منذ عشرات السنين.. وبعضها نتاج اليوم..

وسوف ترى فى العرض صعودا وهبوطاً..

طبق وضع الإنسان.. وطاقته.. وزاوية رؤيته.. وعمر تجربته أيضاً.

وقد سجلت هذه الأفكار.. وأذيعت عبر إذاعة القرآن الكريم بالقاهرة..

فلما أشار علىّ بعض الأصحاب بطبعها .. يسر الله الأسباب حتى كانت بين يديك الآن..

والأمل كبير أن يجعلها الله تعالى فى ميزان حسناتى..

وعلى الله قصد السبيل،،،

د. محمود محمد محمد عمارة

الأستاذ بجامعة الأزهر

فرع المنوفية

عندليب واحد
لا يصنع الربيع!!

﴿فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى﴾

جميل أن تبسط يدك بالعطاء تنفق كيف تشاء.. وأجمل منه أن يكون لعطائك قيمة.. ولن يكون كذلك حتى تحصن نفسك بالتقوى .. كشعور حي تستحضر به نعمة الله عز وجل عليك فلا يبعث الإنفاق فى نفسك خواطر السمعة والرياء. ولا يحرك يدك بالأذى.

﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾.

وإنما تتحول تقوى الله فى نفسك إلى نوع من مراقبة الذات ومتابعة اتجاهاتها.. فلا تضل أو تزل.

ويصبح ذلك الشعور حافظا لعملك.. كحزام تصون به ذلك العمل.. تماما كهذا الحزام الهوائى حول الأرض يحول بينها وبين الشهب الراصدة.

بيد أن مجرد الإعطاء تحت وطأة الظروف لا يجعل منك رجلا فاضلا.

ومجرد ومضة مشاعر الخوف من الله عز وجل لحظة... تسلم نفسك بعدها لدوامة الحياة لا يضيف اسمك إلىٰ قائمة المتقين.

ينبغى أن تكون حياتك عطاءً مستمرا.. ربيعا دائما تبذل فيها الخير طبعا لا تطبعا تعطى القرش .. والكلمة الطيبة.. والجهد المساعد للناس.. والفكرة الصائبة.. والنصيحة المخلصة.. تعطى كل شىء.. فشأنك الإعطاء دائما. بلا قيد أو شرط وهذا سر حذف المفعول فى قوله تعالى :

﴿فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى﴾.

فالمقصود كما جاء فى حاشية الجمل: (ثبوت الإعطاء من حيث هو إعطاء.. وثبوت الاتقاء من حيث هو اتقاء.. لأنه أبلغ وأعم؛ لأنه إذا أريد ثبوت الحقيقة على العموم فتقيدها بنوع ما تحكم كما هو مقرر فى علم المعانى).

ولقد قيل فى المثل: «إن عندليبا واحدا لا يصنع الربيع» وكذلك فإن العمل الواحد .. الفردى ... لايجعل منك إنسانا فاضلا. بل لابد أن يكون البذل عاطفة سائدة فى كيانك.

فإذا تغيرت الظروف.. وسنحت نفس الفرصة.. فموقفك إزاء الآخرين ثابت كما هو إعطاء.. وبذل.. فأنت صادق فى موقفك.. وفيما حكاه الصوفى «أبو محمد المرتعش» مايوضح هذا المعنى:

لقد كان من عادة هذا الصوفى أثناء حجه السنوى أن يفرض على نفسه كل أنواع المشقات: كان يحتمل الجوع والتعب دون أن يشعر بأى اعتراض فى نفسه، حتى ظن أنه قد أصبح متحكما فى ميوله الغريزية. إلى أن وقع حدث تافه فتح له عينيه.. ولنتركه يتحدث. قال:

(وذلك أن والدتى سألتنى يوما أن أستقى لها جرة ماء، فثقل ذلك على نفسى، فعلمت أن مطاوعة نفسى فى الحجات كانت لحظ وشوب لنفسى.. إذ لو كانت نفسى فانية لم يصعب عليها، ماهو حق فى الشرع)[1].

فالمهم هو: خلوص النية وارتباط القلب بالله عز وجل... ونسيان حظ النفس من العمل.. وفى غيبة هذا الارتباط الوثيق بالخالق سبحانه.. لا تغنى الأعمال ولا الأقوال.. وإن شاعت وذاعت.

«ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد، ألا وهى القلب»[2].

فالقلب هو مركز الثقل.. ومحور الدائرة.. والمقياس الصحيح للأعمال التى لايهمه حجمها بقدر ما يهمه صدق النوايا من ورائها.

أن القلب ملك.. والجوارح جنوده.. والناس كما يقولون على دين ملوكهم.. فإذا استقام الملك.. وصلح أمره انعكس من ذلك على الجند صلاحا وطاعة.. وإذا فسد الملك.. ضاع ملكه.. وخانه جنده..

يقول الترمذى رضى الله عنه: (فكذلك القلب إذا فسد لا يغرنك صلاته

---

(١) الدكتور دراز: فى دستور الأخلاق فى القرآن ٦٠٣، ٦٠٤.

(٢) البخارى: كتاب الإيمان ــ باب ٣٩.

وصومه، وعمل جوارحه، فلو أن جميع جوارحه تزينت بجميع الطاعات، ثم دامت تلك الطاعات على الجوارح.. وامتدت المدة فى ذلك. فقرت الجوارح على الطاعات. ولم يكن فى قلبه من الغنى مايمد الجوارح - بقيت الجوارح معطلة. والقلب مفترا، فماذا أغنى هذا الظاهر على الجوارح.

وإذا كان القلب غنيا، والجوارح معطلة.. ففى أدنى حركة من القلب يوسع الجوارح خيرا وبرا)[1].

إن جمال الظاهر لا يغنى عن جمال الباطن.. وإنما يبدأ التجميل من القلب.. من داخل النفس أولا.. ليأخذ الإنسان سمته الواثق إلى تحقيق الكمال الإنسانى المنشود.. وكثير من الناس يعطون.. وتتحدث أجهزة الإعلام عن بذلهم.. لكنهم لايتقون.. إنهم فقط يرضون غرورهم.. ويستجيبون لدواعى الأنانية فى أنفسهم.

قد يجلب أحدهم إلى المسجد آلة تكبر الصوت.. أو أداة لتلطيف الجو.. إنهم يعمرون المساجد.. وفى نفس الوقت يخربون نفوس الآخرين وسمعتهم. والأذن التى تسمع الأذان عبر آلاتهم المكبرة هى نفسها التى تسمع أنين ضحاياهم خارج المسجد إنهم لم يعلموا أن الناس قبل حاجاتهم إلى آلة تجفف العرق.. هم فى حاجة إلى كلمة طيبة تجفف الدموع!!

والعجيب أن خادم المسجد قد يبيت طاويا.. تزكم أنفه رائحة الشواء تفوح من ديارهم!! لكنهم لا يشعرون.. أو يشعرون.. بيد أنهم اكتفوا من الفضيلة بصورتها الظاهرة الملفتة للأنظار والأسماع.. بعد أن أطلقوا من ورائهم هذه الضوضاء.. التى تخفى مشهدهم المترف عن أعين الفاقدين المحتاجين إلى عواطف الخير فى قلوبهم.

وكان حظ بعضهم كهذا الصوفى الذى حمل نفسه فوق ماتطيق وأدى مناسك الحج مرات ومرات ... لكنه فى غمرة الإحساس بحظ نفسه.. نسى أن يسقى أمه شربة ماء؟!

المهم - مرة أخرى أن يرتبط القلب بالله تعالى.. ولا على الإنسان بعد ذلك إذا جاء إحسانه قليلا لا يستلفت النظر. فالمطلوب رسوخ البذل كحقيقة من حقائق

---

(١) الترمذى: جواب المسائل ١٩٥، ١٩٦.

النفس فوق الشك والتردد.

ينشط المرء لفعل الخير كلما دعا إليه داع.. والجزاء الأوفى لذلك هو مانصت عليه الآية الكريمة : ﴿فسنيسره لليسرى﴾

أى : نهيئه لليسرى.. أى: لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها كما جاء فى حاشية الجمل، ذلك بأن المسلم المتقى.. الوثيق الصلة بربه سبحانه يشعر بيسر ما يزاول من عمل.. وخفة ما يلقى على كاهله من أعباء.. على ما يقول سبحانه: **﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾**

ثم إنه يشعر فى عمله بما يجعله أيسر وأسهل.. يشعر بغبطة وسعادة، وإذا كان من جزاء السيئة.. أن تخذل بعمل سيئة أخرى، فإن من ثواب الحسنة أنها تلد حسنة أخرى! أى أن بركة العمل تكمن فيه.. فيشع بها ضياء يقودك إلى مثله.. فإذا أنت طاقة عاملة آملة.. تسعد نفسك.. وتسعد الآخرين من حولك. ويؤيد هذا المعنى قوله ﷺ: «**إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا**»[1].

لكن هذا التيسير للعمل.. ربما لا يتاح لك حالا.. وعلى وجه السرعة التى تأملها.. وهنا تجىء (السين) فى قوله تعالى: ﴿فسنيسره..﴾ لتطمئن إلى أن هذا التيسير سنة من سنن الله تعالى لا تتخلف.. فلابد أن يقع.. ولكن ليس بشرط أن يقع فورا.. ورهن إشارتك. وإذا لم يكن اليوم... فسيكون غداً. وهو أسلوب فريد.. له أثره الفعال فى تربية الإنسان وأخذه بالفضيلة.. جاء فى حاشية الجمل: (ذكر السين تلطيف للكلام: أى ترفيق.. أى لا يكون نصا فى المقصود.. بل يكون محتملا لغير المقصود.. فهو كالشىء الرقيق الذى يمكن تغييره ويسهل. ويقابله الكثيف: بمعنى أن يكون نصا فى المقصود؛ لأنه لا يمكن تغييره وتبديله. فهو كالشىء الكثيف الذى لا يمكن فيه ذلك.

فالمقصود هو أن التيسير حاصل فى الحال.. لكن أتى بالسين الدالة على الاستقبال والتأخير لتلطيف الكلام بترقيقه باحتمال أن لا يكون التيسير حاصلا فى الحال لنكات تقتضى ذلك، والله أعلم). وسبحان من هذا كلامه.

(١) البخارى: كتاب الأدب. باب ٦٩.

أحياء ... وأموات

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[1].

إذا كانت دعوة العباد إلى الله تعالى هى مقصد القرآن الأعلى.. فإن ضرب الأمثال للناس فيه صورة من صور الإلزام يقتادهم إلى معرفة الحق سبحانه وتعالى.

ولقد صرف الله آياته فى القرآن الكريم حتى تأخذ بحجزهم إلى الخير.. عن طريق الترغيب والترهيب.. تقديرا للحق.. وتنفيرا من الباطل. لكن موقف الناس أمام هذه الآيات لم يكن واحدا: فمنهم من آمن. ومنهم من كفر. ولقد جاءت الآيات الكريمة لتنفى استواء الفريقين واقعا ومصيرا.

والمقارنة الضمنية بين الفريقين قد ألمحت إليها الآية الكريمة قبل ذلك مباشرة.. فى قوله تعالى: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾. وهذه المقارنة تبدو ظاهرة فى هذه الآيات على نحو يقف بالرسول ﷺ عند حدود رسالته: ليعلم أن الإصرار على دعوة هؤلاء المعاندين.. وملاحقتهم بالنذر أمر لا مسوغ له.. فى الوقت الذى فقدوا فيه ملكة التمييز.. وراحوا يتخبطون فى الظلام...

وليس المراد هنا: تدبير الوسائل لحملهم على الإسلام.. لكن الأمر هو: لماذا آمن هؤلاء.. وكفر أولئك؟

هذا هو السؤال الذى يبحث عن جواب.. وفى ضوء هذا الجواب تتبين طبيعة القوم العصية على الخضوع.. ومن ثم فكل ما يبذل فى سبيلهم جهد ضائع. لقد استجمع الأولون خصائص الحياة فقادتهم إلى الحق.

---

(١) فاطر: ١٩ ـ ٢٤.

إن المؤمن بصير.. ينقل خطاه على نور من ربه.. وعلى جناحين من بصره ووضوح غايته يصل إلى الظل.. إلى الجنة التى تصبح له جزاء ومصيرا.. وعلى الطرف الآخر.. يقف الكافر عاطلا من هذه الخصائص. ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ إنه أعمى.. يخبط فى ظلام.. يسلمه فى النهاية إلى الحرور.. إلى جهنم.. حياته كلها سلسلة من«الظلمات». ظلمة الطبع.. وظلمة البيئة المنحرفة.. وظلمة الفكر المغلق الجامد.

ظلام ببطن الأرض ليس لـه سـر   وليل ببطن القبر ليس له سر

لعمرى، كأن العمر متصل الدجى   فأولـه قبر وآخـره قبـر!

وإذن.. فالمؤمن حى.. والكافر ميت! هذا يتعثر وسط أشواك من ذاته.. وبيئته.. فهو مبعثر الوجود غير متماسك.. تتوزعه الأوهام.. وتتخطفه الأباطيل.. وذاك.. يسير على نهج واحد راشد.. فلا عجب أن اختلفت نهاية كليهما.

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[1].

إن العمى والإبصار يأخذان معناهما الحقيقى.. على غير ما ألف الناس فى حياتهم: فالمؤمن بصير.. وإن فقد حاسة البصر. والكافر أعمى.. ولو كان فى عرف الناس بصيرا.

والآيات الكريمة بهذا التعريف.. ترفع من قدر الخصائص النفسية والمواهب الروحية للإنسان.. فهى التى يكون بها إنسانا ويثقل بها ميزانه. وهى بذلك تتخطى الشارة البادية.. والمظهر الخادع.. لتحكم على المرء بمقدار ما حصل من عواطف الخير. ثم هى لفت النظر إلى المؤمن كتربة خصبة.. تستقبل بذور الدعوة إلى الله.. لتستحل على أرضها نباتا وخضرا.. ثم حبا متراكبا.. بقدر ما صار الكافر المعاند المصر.. صخرة جامدة لا تحفظ ماء.. ولا تنبت كلأ.. وإذا اختلفت طبيعة الاثنين.. فينبغى أن تختلف النظرة إليهما اختلافا ينفض به الرسول يده من إيمان قوم.. أموات.. وإن حسبوا فى عداد الأحياء.

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القادر على أن يحيى الأرض بعد موتها.. فهو وحده القادر على إسماع هؤلاء الجاحدين نداء الحق.. ولا يقدر على ذلك سواه.. ولو كان محمدا عليه الصلاة والسلام. والله سبحانه وتعالى.. لا يسمع نداء الحق إلا من أصاخ السمع إليه.. وبحث عنه.. وتعلقت أشواقه به. وحيث تجرد هؤلاء من كل هذه الخصائص.. فإن محاولة رجعهم فوق كونها أمرا مستحيلا.. إنما هى تجاوز لقدرة الرسول كبشر تقف به بشريته عند حد معلوم:

﴿إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور﴾.

ونختار هنا عودة الضمير فى الفعل: «يشاء» إلى العبد نفسه ليصير المعنى هكذا:

إن الله سبحانه وتعالى يهدى إلى الحق من يشاء من الناس هذا الحق ويتطلع إليه فى الوقت الذى تتخلى فيه هدايته عن كل مخذول أدار ظهره له.. واتبع هواه فأخلد به إلى الأرض.

ويعود الضمير على العبد نفسه.. يتبدى لنا الفرد حرا طليقا فى اختيار واحد من النجدين اللذين هداه الله سبحانه إليهما.

وبهذا الفهم.. تتضاءل شبهة الجبر التى يحاول بعض الفارغين ربط الإنسان بها على اعتبار أنه ريشة معلقة فى الفضاء.. لا تملك من أمر نفسها شيئا.. وإذا كان الأمر كذلك.. فلم يأس الرسول ﷺ على قوم قد اختاروا بمحض إرادتهم أن يستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير..؟

إن كفرهم لم يكن بسبب تقصير فى البلاغ أبدا.. كما لم يكن من ورائه خفاء فى الدليل. لكنه راجع فى حقيقة الأمر إلى سوء تقديرهم للموقف الناشئ عن فساد آلة التمييز فى نفوسهم. وما دام الأمر هكذا.. فليس بالأسى يشيع القوم.. ولكن الأوفق بهذه الطبيعة أن تهدد وتنذر: ﴿إن أنت إلا نذير﴾.

ونلاحظ فى الآية الكريمة اختفاء معنى: «البشارة» لتظهر فقط سمة «النذارة» إزاء قوم غاضت فى أنفسهم كل معانى السلام والمودة ولا يصلح خطابهم إلا على وجه التهديد. ولكن الرسول ﷺ.. «بشير ونذير» معا.. حين يتعلق الأمر بالبشر

جميعا.. وفيهم مؤمنون مبشرون... وكافرون منذرون: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا﴾.

بل ويتقدم وصف البشارة على وصف النذارة.. فترسم الآية بذلك أمام الدعاة إلى الله طريقهم فى الدعوة إليه سبحانه:

إنهم أساة للجراح.. وهداة إلى الخير.. ومعرفتهم بالحق تفرض عليهم مزيدا من التسامح فى مقابل قسوة الناس.. ليقتحموا بذلك عقبات الطريق.. أجل، وإنها لبشرى كريمة يسوقها الحق سبحانه وتعالى إلى أمة محمد ﷺ.. تلك الأمة التى تبدو طبيعتها الخيرة فى معنى البشارة الذى يلازم الرسول.. فى الوقت الذى تبدو فيه صورة الأمم قبلنا عصيبة.. متجهمة.. تزايلها تلك الطبيعة السمحة الكريمة.. لتجد نفسها وجها لوجه أمام النذير.. دائما.. على نحو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾.

حتى لا يستيئس الدعاة

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾[1].

فى سلسلة المعارك الدائرة بين الحق والباطل.. وكلما ازدادت حجة الحق اتضاحا. وتضاءلت شبهة الباطل افتضاحا. كلما لجأ الوثنيون إلى أسلوب التجريح. شاهدين على أنفسهم بالإفلاس فى مجال المجادلة بالمنطق الواضح السليم.

إنهم لا يكتفون بأنهم «يكذبون» على أنفسهم حين يعفرون وجوههم لأحجار لا تضر ولا تنفع. بل إن الأمر ليصل بهم إلى مدى بعيد.. إذ «يكذّبون» الرسول ﷺ فى دعوى التوحيد.. تلك القضية التى بلغت من الوضوح حدا يجعل من إقامة الدليل عليها أمرا فى غاية العسر.. لأنه فى غاية السهولة!

ومن شدة الوضوح الخفاء! وهكذا يفعل الجاهلون فى كل عصر ومصر:

إنهم يلجؤون إلى المهاترات الرخيصة كلما أعيتهم الحيل. وتصدى لهم الدليل.. يريدون بذلك إنزال الحق وأهله من عليائه.. ليعيشوا معهم فى واقعهم الآسن.. حتى يكونوا معا فى الكفر «سواء» !

يستوى موقفهم إزاء دلائل الوحى جميعا . سواء أكانت «بينات» واضحة.. أو كتبا يتولاها المرسلون بالشرح والتحليل.. وهو معنى.. يكون من المفيد أن يلتفت الرسول الله ﷺ إليه.. وسوف يتأكد له أن المعاندين من قومه ليسوا سوى حلقة بارزة من سلسلة التكذيب.. عبر التاريخ.. فليسوا أول مكذب فى الحياة.. كما أنه فى تعرضه لأذاهم ليس بدعا.

وبهذا الفهم الواقعى لطبيعة القوم.. يوفر الرسول على نفسه كثيرا من

---

(١) فاطر : ٢٥ ـ ٢٨.

المتاعب التى يمكن أن تتيح له فرصة انشغال أكبر بما يفيد وينتج.

إنه لا تفسير لموقف القوم إلا أنهم صنائع حقد دفين. يسول لهم أن يرموا بكل نقيصة أطهر رسول .. وأكرم دعوة.. حينما يعوزهم الدليل ويأخذ على كيانهم أقطاره.. وهم بذلك دعاة إلى الهدم.

وحتى يكون الجزاء من جنس العمل.. فإن الحق سبحانه وتعالى يأخذهم هكذا أخذ عزيز مقتدر.. فجأة بلا مقدمات.. يأخذهم جميعا بيد قدرته.. ليصيروا فى قبضته سبحانه وتعالى مثلا فى الآخرين.. ولأنهم.. كفروا .. وستروا منطق الفطرة الداعى إلى اعتناق الحق الذى جاءهم.. فمصيرهم أن يؤخذوا على نحو لا يبقى لهم ذكرى فى هذه الحياة. كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر.

وروح التسلية أو التسرية عنه ﷺ بادية من خلال الآيات الكريمة. وهى تسلية... لا عن أذى يلحق بشخصه الكريم بقدر ما هى عزاء يستشعره أمام الأذى تتعرض له دعوته التى كذبوا بها.. الأمر الذى يضاعف من أساه على موقف القوم.. من حيث تعلق الأذى بالمبادئ وحدها.

وإذا كان أساه ﷺ.. والمشار إليه فى الآيات السابقة جاء نتيجة لنسيان طبيعة المعاندين وأنهم صنف لا يتأتى منه الإيمان. وبذلك يختلفون عن هؤلاء الذين معك.. فإن عنصر التسلية يعتمد على التذكير بقانون كونى يؤدى استحضاره إلى التخفيف من حدة الأسى على كفر القوم.. وذلكم هو قانون الاختلاف..

والاختلاف قانون سائد فى ممالك النبات.. والجماد.. والحيوان جميعا.. ولو وعينا الدرس جيدا.. لما كان هناك داع إلى الوقت والجهد فى ملاحقة قوم نريد حملهم على الإيمان.. بيد أنهم ليسوا من أهله.. فلابد أن يختلف الناس؛ فيؤمن بعض ويكفر آخرون.. بل إن الفريق الثانى يربو عدده: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وهو مثال .. لما يحدث فى الطبيعة من اختلاف نستأنس به فلا نحاول قسر غيرنا على الإيمان: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ.

---

(١) يوسف: ١٠٣.

﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1].

هذا القانون الإلهى تفصح عنه الآية الكريمة التى نتعرض لها الآن:

ففى عالم النبات: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها﴾.

وفى الجماد:

﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾.

وهو أيضا فى مملكة الحيوان:

﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾.

ولعل الإشارة فى قوله تعالى: ﴿كذلك﴾ عند الحديث عن اختلاف الحيوان.. أحالت للمخاطب إلى معنى الاختلاف السابق لينتهى به الأمر إلى فهم ينتهى به الأسى على عدم إيمان فريق المعاندين.. لأن ذلك ضد طبائع الأشياء ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار.

إن الزرع.. والجماد.. والحيوان.. كل أولئك يختلف لونا وطعما ومنفعة مع انبثاقه عن أصل واحد هو: الماء أو التراب. وكذلك البشر: يختلفون من حيث استجابتهم للحق.

فلم إذن لا يتعامل الرسول مع المعاندين المعرضين من هذا القانون الشامل؟

لماذا يتوقع إيمانهم ليصبح الناس كلهم أمة واحدة؟

الآن الدعوة تتجه إليهم جميعا.. وبنفس الإخلاص والقوة؟

إن العيب ليس كامنا فى الدعوة أو وسائلها.. بيد أن مكمن الداء هناك فى طوايا نفوس تجاهلت مظاهر القدرة ودلائل عظمة الحق سبحانه.. بينما هى منبثة فى ثنايا الكون. ولقد برئ من هذا العيب أناس فتحوا أبصارهم على مجالى الطبيعة. فمكن الله بصائرهم من فهم أعمق.. نقلهم منَ الكون.. إلى المكون.. من الأثر إلى المؤثر. إنهم العلماء.. الذين يخشون الله دون سواهم من الغافلين ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

---

(١) هود: ١١٨، ١١٩

فليس سواء عالم وجهول

وإذا كان الشاعر العربى قد دعا قومه يوما إلى الإنصات إلى رقة شعره.. وجمال أدبه.. فلم ينصتوا.. فقال:

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد لغزلى نساجا فكسرت مغزلى

إذا كان هذا الشاعر قد بلغ به اليأس إلى التخلى عن دوره فى الحياة.. تأثرا بما يلاقى من عنت وإرهاق.. فإن طبيعة الدعوة الإسلامية تفرض على حملتها نوعا من الفدائية يخوضون به غمرات الحياة دفاعا عن الحق الذى أضافوا وجودهم إليه.. وصار منهم جزءا من كيانهم بل هو أبقى من حياتهم هم.. التى يمكن لها أن تنتهى يوما ليبقى الحق مشعلا يضىء للحيارى معالم الطريق.

ونتأمل الآية الكريمة فنرى معنى «العالم» يتسع ليشمل كل باحث فى كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية حيثما وجد؛ لأن الوصف بالعلم يجىء فى أعقاب الحديث عن النبات.. والجماد واختلاف الناس والحيوان..

تلك العوالم التى تتطلب تضافر جهود الباحثين فى كل مجال.. ولاتقتصر بطبيعة الحال على الفاقهين من علماء الشريعة.. كما قد يتبادر إلى الأذهان، وعلى قدر اتساع اللفظ وشموله لكل باحث.. لكن وصف «العبودية» المأخوذ من قوله تعالى: ﴿من عباده﴾. يجعل من الخشية سمة بارزة لكل عبد لله.. منيب إليه.. اتخذ العلم سبيلا إلى ترقية الحياة. لاهؤلاء الذين يسخرون طاقاتهم للتدمير لاللتعمير. فإذا كان العلم «نوعا» يستوعب علماء الأرض جميعا. فإن وصف العبودية المستتبع للخشية يستبعد كل من لا يؤمن بالآخرة.. ويجرد من لم يخش الله فى علمه من أكرم الصفات: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾[1].

فى نفس الوقت يجعل من هذه العبودية شعار لون من العلماء تجردوا من الهوى.. ثم أسلموا وجوههم إلى الله سبحانه وتعالى... فساروا عبر الطريق الذى رسمه لهم فهداهم الله إلى حقائق الكون: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]... ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[3].

(١) المؤمنون: ٧٤. (٢) الحج: ٥٤. (٣) الشورى: ٥٣.

من صور العناد

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١).

لم يكن المشركون منطقيين مع أنفسهم حين وصفوا محمدا ﷺ بأنه مجرد «رجل» نكرة يغيب فى زحمة الناس.. عاطل من كل خصائص الزعامة التى تفرد بها عظماء القريتين!.. متجاهلين بذلك أنهم جميعا «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم».

ولعلهم يسيغون لأنفسهم التورط فى مثل هذا التناقض مادام سيفضى فى النهاية إلى هز صورته فى أذهان الناس.. وبالتالى ينفضون من حوله..

والسؤال الآن: هل عرضت الآية الكريمة شخصية الرسول للمناقشة حتى يقولوا رأيهم فيها بتعريف أو تنكير؟

إن القضية المعروضة محددة المعالم.. واضحة السمات.. وهى التى تجرى بشأنها المواجهة بين الإيمان.. والشرك.. وليس الرسول بشخصه قضية.. ولكنه داعية وأسوة.

والقضية هى: آيات بينات تدعو إلى التوحيد عقيدة.. ومنهاج حياة...

فلماذا يخرجون من الموضوع.. موضوع المناقشة ليدوروا حول الرسول بتهمة باطلة؟ وهل تسنى لهم وقد خرجوا من الموضوع أن يزنوه عليه الصلاة والسلام بميزان عادل؟ أبدا.

إنهم لم يحاكمون إلى مبدأ يقينى يلتقى عليه العقلاء.. بيد أنهم يحتكمون فى تقديره إلى الإلف والعادة كما خلفها آباؤهم الأقدمون! ﴿**ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم**﴾.

إن ما يأخذونه عليه أنه يحول بينهم وبين التقليد فى محاولة لإثارة أشواق

---

(١) سبأ: ٤٣.

النفس.. وتحريك العقل ليصل بهم إلى الله سبحانه. ويواصل القوم جدالهم فينتقلون من الداعى.. إلى الدعوة التى لا يكتفون بالإعراض عنها.. لكنهم يتصدون لها بتهمة زائفة يرمون بها الرسول ﷺ.. من بعيد:

﴿وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى﴾.

وكأنما أحسوا بموقفهم الهزيل إذا هم وصفوه بالكذب والافتراء بينما إجماعهم قد انعقد على صدقه. كأنما أحسوا بذلك فحاولوا إلصاق التهمة بالدعوة والمراد هو.. والمآل واحد فى الحالتين. وهذه المبالغة فى الإنكار والذم المستفادة من أسلوب القصر هنا تعكس صورة نفوس حائرة قلقة لا تؤمن بما تقول.

ولا نريد أن نستشهد بعلم النفس كدليل يفسر مرامى القرآن الكريم هنا.. لكننا نستأنس فقط بما وصلت إليه الأبحاث المخلصة النزيهة.. وهى تفسير حالة الإنكار لمبدأ ما.. وصلة ذلك بما نحن فيه.. وكيف كان الإنكار الشديد بلا مسوغ خطوة أخيرة يقترب بها الإنسان من الإيمان بالمبدأ.. إذا لم يكن قد اقتنع به فعلا.

يقول الدكتور عبد المنعم المليجى فى كتابه: «تطور الشعور الدينى» ص ١٥٥، ١٥٦:

إن إنكار الله إذن خطوة أقرب إلى التسليم به من عدم الاكتراث به. ذلك أن عدم الاكتراث بأمر ما أو الجهل به.. معناه بعد الأمر عن البال بعدًا تاما.

﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾. [سبأ: ٤٤، ٤٥].

إذا كان أهل الكتاب قد وقفوا من الإسلام موقف المعارضة.. فربما كانت لهم شبهة اعتذار.. إذا هم رفضوا التخلى عن دين جاءهم به رسول.. وحذرهم من التفريط فيه - مع بطلان موقفهم قطعا - لكن المشركين الذين يعارضونه فى دعوى التوحيد.. ما عذرهم؟ هل نزل عليهم كتاب يصحح دعوى الشرك..؟

أم جاءهم رسول من قبل الله سبحانه ينذرهم بالعذاب إذا لم يشركوا؟

إن شيئا من ذلك لم يحدث.. كماا يفهم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا

آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ وإذن... فما لهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون؟ لا شك أنهم يدلون بأموال جمعوها.. وجند جندوها..

كل أولئك سول لهم أن يركبوا من الكذب فى حربهم مع محمد عليه الصلاة والسلام.. وأملى لهم ليزدادوا إثما.

بيد أن المال والرجال.. لن يغنيهم من عذاب الله شيئا.. وعليهم أن يتأملوا هذه الصورة من تجارب الماضى يعرضها عليهم القرآن الكريم:

صورة قوم وقفوا نفس الموقف.. فدمر الله حياتهم تدميرا.. بينما كانوا أشد من قريش بأسا وأكثر منهم مالا..

﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

لقد صار التكذيب لهم عاطفة سائدة.. تمكنت من نفوسهم التى مردت عليها كل يوم: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

وعن هذه العاطفة السائدة.. صدرت كل صور التكذيب بشكلٍ وبائى تناول حتى أبعد الخلق عن التكذيب وهم رسل الله تعالى.. ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾.

وعندما يبلغ التكذيب منتهاه.. يكون العذاب نتيجة لازمة تضع حدا لأناس غير جديرين بالحياة.. ولابد من تنحيتهم وإراحة المجتمع من شرورهم.

ويغيب طيف هؤلاد الأشرار.. أعداء الحياة.. لتبقى ذكراهم عبرة فى أذهان الكافرين الذين ينقلون خطاهم على نفس الطريق.. إلى نفس النتيجة!

ويوشك التاريخ أن يعيد نفسه اليوم.. مع مشركى مكة الذين صار التكذيب فيهم عادة متأصلة.. ينكرون بها الشمس فى وضح النهار كإخوة لهم من قبل..

وليس أعرق فى باب التكذيب من أناس يخدعون أنفسهم التى تؤمن بالحق وجه النهار.. ثم تكفر به آخره.

إن الذين يصفون رسالة الله اليوم بأنها سحر.. وسحر مبين.. هم أنفسهم

الذين يعترفون بالله ربا وفى وقت يستفتون عنده الفطرة كما خلقها الحق سبحانه وتعالى.. بعيدا عن كل زيف وتضليل.

أليسوا هم المخاطبين بقوله تعالى: ﴿**وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعوه إلا إياه**﴾.

ثم ما رأيهم فى هذه الأجوبة التى سجلها عليهم القرآن الكريم.. وبها يكشفون عن عقدة الكذب فى كيانهم؟ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم**﴾.

﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله**﴾.

﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون**﴾.

﴿**ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله**﴾.

إنهم يكذبون على أنفسهم وعلى الحق بنفس القوة التى كذب بها الأولون.. وهاهم أولاء يقتربون من نفس المصير.. مصير الغابرين الذين اتبعوا الهوى فأضلهم عن سبيل الله.. ﴿**أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون. ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون**﴾.

فى حين أن الإلحاح على إنكاره أمارة اهتمام وانشغال به. وهذا يؤيد المبدأ العام الذى قرره «فرويد» وهو أن النفى للواقع المؤلم مرحلة وسطى بين كبته وبين قبوله. أى أن النفى الصريح لفكرة بغيضة ليس بكبت ولا هو بقبول لها. إنما هو خطوة نحو ذلك القبول.

ويصل ذلك بأن إنكار الواقع المؤلم له أثر مهدئ للخوف الذى يثيره فينا.. ومن ثم يعدّ المرء لقبوله. فبفضل تلك العملية«نفى الواقع» يتيسر للواقع الخارجى الغريب «ومن ثمة المعادى» أن يحتل مكانا فى الشعور على الرغم من«الألم» الذى يسببه. فالنفى مرتبة من مراتب الانتصار على القوى الكابتة التى تؤدى إلى

الإغفال التام لكل ما هو بغيض أليم. وبفضل النفى لا يعود الألم مجهولا. وإنما يصبح موضوع إدراك فى صورة النفى ولا يبقى بعدئذ غير خطوة واحدة لإزاحة آخر عقبة فى طريق تقبل الفكرة البغيضة وتأييدها.

وليس «فرويد» وحده هو الذى يقرر ذلك. بل إن «فرنتزى» يزيد الأمر إيضاحا حينما يقرر أن تأييد فكرة بغيضة ليس شيئًا هينا بل هو عملية نفسية مزدوجة هو: أولا: محاولة لنفى كونها حقيقة واقعة. ثم محاولة ثانية لنفى ذلك النفى.

وهكذا.. فإن الإثبات.. أى الاعتراف بالشر يمكن اعتباره نتيجة حكمين سالبين.

وها أنت ذا تحس من وراء السطور بحركة عصبية طائشة تريد إنهاء الجدل سريعا.. وقبل أن تأخذهم دلائل الحق المحيطة بهم من كل جانب. هذه الدلائل التى لو هادنوها واستسلموا لها.. لأخذت بحجزهم إلى الاعتراف.. أو الهزيمة.. وأحلى الأمرين.. مر..

ومن هنا لاتناقشهم الآية الكريمة فيما يدعون.. لأنهم غير مقتنعين به.. لكنها تعرضهم أمام الأجيال من خلال أفكارهم المتهافتة التى تعلن بنفسها عن بطلانها.

واللفتة الكريمة هنا.. فى قوله تعالى: **﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾**.

فعندما حكت الآية رأيهم فى شخص الداعى.. من قريب أو من بعيد لم تسجل عليهم الكفر.. مع أنه سمتهم البارزة.

﴿قالوا ماهذا إلا رجل..﴾. لكنها حين تذكر موقفهم من الحق ذاته.. أى من الدعوة التى يدعوهم إليها.. لا تكتفى بذلك.. بل تسجل عليهم الكفر هنا.. بالذات: **﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم﴾**.

وبذلك تؤكد الآية الكريمة أن الحق هو القيمة الوحيدة الباقية.. فوق الأشخاص والألقاب. وإذا كان هناك من خلود للداعى.. فبقدر ولائه للحق وتحمله فى سبيله.

وهى بهذا المنطق الرشيد.. تعطى المبادئ قيمتها الحقيقية.. كما أنها تضع الداعية فى مكانه الصحيح.

إنه رجل يجاهد ملتزما بكلمة الله.. ثم يسلم الراية من بعده لمن كان أهلا لها مستعدا لتحمل مغارمها. على أن يكون ثبات المبادئ أو ضياعها هو محور الجهود.. وركيزة العمل.. بغض النظر عن الأشخاص الذين نتجاوز بهم حدودهم كبشر تجاوزا ينسينا دورهم الحقيقى حين نضفى عليهم ألوانًا من التقديس.. يخف بمقتضاها إحساسنا بمبادئهم ذاتها. كان ذلك.. من حيث وجدنا الآية الكريمة تنعى على المشركين رفضهم المتعجل لرسالة الله سبحانه بوصف كونها حقيقة مجردة يلزمهم النظر فى طبيعتها.. لا بوصف كونها فكرة جاءتهم على يد الرسول بالذات.

دعوى.. بلا دليل

﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[1].

إذا كان أهل الكتاب قد وقفوا من الإسلام موقف المعارضة.. فربما كانت لهم شبهة اعتذار إذا هم رفضوا التخلى عن دين جاءهم به رسول. وأن هذا الرسول قد حذرهم عاقبة التفريط فيه ـ مع بطلان موقفهم طبعا ـ لكن.. ما بال هؤلاء المشركين الذين يتصدون للرسالة وما تدعو إليه من توحيد ماعذرهم؟ هل نزل عليهم كتاب يصحح دعوى الشرك؟ أم جاءهم رسول من قبل الحق سبحانه ينذرهم بالعذاب إذا لم يشركوا؟!

إن شيئا من ذلك لم يحدث.. كما يشير إلى ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾.

وإذن.. فما لهؤلاء القوم لا يؤمنون.. وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون؟ لاشك أنهم يدلون بأموال جمعوها. وجند جندوها.. كل أولئك سول لهم أن يركبوا متن الكذب والتضليل فى عراكهم مع الإسلام وأهله. بيد أنهم لابد أن يعرفوا ـ إذا لم يكونوا يعرفون ـ أن المال والرجال لن يغنيهم من عذاب الله شيئا.. وهذه حقيقة يذكرها التاريخ.. وتؤكدها تجارب الحياة.

وما عليهم ألا أن يتأملوا هذه الصورة التى يعرضها عليهم القرآن.. لقوم وقفوا نفس الموقف من دعوة الله فدمر الله عليهم حياتهم.. بينما كانوا أشد من قريش بأسا.. وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها.. فما أغنى ذلك عنهم من عذاب الله.

﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

---

(١) سبأ: ٤٤، ٤٥.

والآية الكريمة ترسم لهم صورة صادقة تشف عن دوافعهم العدوانية المتشبثة بهم. لقد صار التكذيب لهم عاطفة سائدة... تمكنت من نفوسهم التى مردت على إنكار الحق ليلا ونهارا: ﴿وكذب الذين من قبلهم﴾.

وعن هذه العاطفة السائدة.. صدرت كل ألوان التكذيب على نحو مستمر.. حتى وصموا بالتكذيب أبعد الخلق عنه.. وهم رسل الله: ﴿فكذبوا رسلى﴾.

وعندما يتعلق التكذيب بصفوة الخلق على الإطلاق.. يكون قد بلغ منتهاه وشارف حد التشبع. وحينئذ يصبح العذاب نتيجة لازمة تضع حدا لأناس غير جديرين بالحياة.. ولابد من تنحيتهم وإراحة المجتمع من شرورهم.. من حيث كان بقاؤهم حجر عثرة وعقبة تعوق طريق الراغبين فى الإسلام. ولابد أن يكون التخلص منهم تطهيرا للبيئة من غازات سامة تزحم الجو بنذر الفناء.. حتى إذا قدم جيل جديد فى صحبة فطر سليمة.. كانت التربة معدة لإنباتهم بعد ذلك نباتا حسنا. ويغيب طيف هؤلاء الأشرار أعداء الحياة.. لتبقى ذكراهم فى أذهان الكافرين الذين ينقلون خطاهم على نفس الطريق.. إلى نفس الغاية. ويوشك التاريخ أن يعيد نفسه اليوم..

لقد صار التكذيب عادة متأصلة فى صدور المشركين من قريش ينكرون به الشمس فى رائعة النهار.. كأخوة لهم من قبل.. وليس أعرق في باب التكذيب من أناس يخدعون أنفسهم التى بين جنوبهم. حين يرمون الرسول بكل منكر من القول وزور.. بينما يتجاهلون دلائل صدقه التى يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم!

إن الذين يصفون الرسالة اليوم بأنها سحر.. وسحر بين ظاهر.. هم أنفسهم الذين يعترفون بالله ربا فى وقت يعودون فيه إلى فطرهم كما خلقها الحق سبحانه.. بعيدا عن كل زيف أو تضليل. وإلا... فليحددوا موقفهم بعد هذه الاعترافات التى يسجلها القرآن الكريم عليهم.

أليسوا هم المخاطبين بقوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾.

ثم ما رأيهم فى هذه الأجوبة الصريحة القاطعة.. والتى لا تتحمل جدلا أو

تأويلا، والتى تضبطهم فى نفس الوقت متلبسين بتهمة الكذب حتى يصفوا الحق بما وصفوا؟

﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[1].

﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[2]. ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3]. ﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[4].

فكيف يستقيم ـ مع هذا الاعتراف ـ أن يتهموا رسالة الله بأنها سحر.. وسحر مبين؟! إنهم بهذا يكذبون على أنفسهم.. وعلى الحق.. بنفس القوة التى كذب بها الأولون.

وهاهم أولاء يقتربون من نفس المصير... مصير الغابرين الذين اتبعوا الهوى.. فأضلهم عن سبيل الله.. وأسلمهم إلى لون من العذاب الفريد فى بابه.. والذى كان إنكارا من الله مدمرا.. يصح أن يكون مثلا تسير بذكره الركبان: ﴿فكيف كان نكير﴾.

---

(١) الزخرف: ٩. (٢) الزخرف: ٨٧.

(٣) العنكبوت: ٦٣. (٤) العنكبوت: ٦١.

لكل دعوة .. أبو جهل!

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾[1].

مضت سنة الله فى الأولين.. أن كل مكذب بآية مبصرة تحق عليه كلمة العذاب.. وصار هلاكه نتيجة حتمية لعناد تجاهل البرهان المحسوس.

وفى حلقة من سلسلة عناد المشركين تطلب قريش من الرسول ﷺ آية حتى يؤمنوا إذا هم شاهدوها... وقد استطاع المشركون فيما يبدو أن يتكلفوا الجد فى الطلب.. وأن يتقنوا الدور إلى حد ظن فيه بعض المسلمين صدقهم.. فضموا أصواتهم إليهم فى رغبتهم المتعلقة بنزول الآية المقترحة.. فينتهى بنزولها صراع طال مداه...

أى أن الخطة الماكرة تقترب من تحقيق نصر تبدو الآن بوادره حين تستميل إليها قلوب عامة المسلمين... فى الوقت الذى لا يسير ميلهم فى اتجاه يخدم الدعوة.. تلك الدعوة التى تهتف بهم أن يحرروا أنفسهم من كل ركون إلى أعدائهم:

﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾[2].

ولقد أفصح المشركون عن هذه الرغبة قبل ذلك .. فأقسموا أن لو جاءتهم آية لآمنوا بها.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[3].

---

(1) الأنعام: 111 ـ 113.   (2) هود: 113.   (3) الأنعام: 109.

والآية الكريمة تشير إلى كذبهم على نحو أكيد.. لكن المسلمين الطامعين معهم لا يشعرون بموقفهم الجامد لو نزلت هذه الآية.. وأى شىء يجعلهم شاعرين بهذه النتيجة مدركين لها.. والحال أنهم لا يعلمون الغيب؟

وفى الآيات التى معنا يلفت الحق سبحانه وتعالى المسلمين ليدرؤوا عن أنفسهم هذا الخطر فيقطعوا كل آمالهم فى إيمان قوم كتب الله عليهم الكفر.. لأنه سبحانه لو أجابهم إلى ما طلبوا.. بل وفوق ما طلبوا فلن يؤمنوا.. فلتبق للمؤمنين شخصيتهم المتميزة بعيدا عن كل ما يؤثر فيها.. وإن بدا فى ذاته يسيرا جائز الوقوع.. لأنه شرك منصوب يراد به زعزعة الصف.. وتفريق الشمل.. صادر عن خطتهم الماكرة فى حرب الإسلام وأهله والتى صرفها الله فى القرآن الكريم:

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾ (١).

فلو أنه سبحانه وتعالى نزل عليهم الملائكة.. ولو بعث أباءهم من قبورهم شاهدين عليهم بالكفر.. وحتى لو جمع لهم كل كائن يشهد بصحة الإيمان.. ما أذعنوا.. إلا أن يشاء الله ذلك.. فهو وحده القادر عليه.. والعليم بموقفهم من عقيدة الإسلام.. وهذا أمر لا تملكونه أنتم.. وتعجز وسائلكم البشرية عن تحقيقه.. ومن ثم.. فقد اتجهت بكم أمانيكم إلى سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء... حتى إذا جاءه لم يجده شيئا..

والحقيقة التى يجب أن يكونوا على وعى كامل بها.. أن هؤلاء أعداء الدعوة.. وإن استترت هذه العداوة وراء محاولات خادعة براقة.. وفى ضوء ذلك.. ينبغى أن تكون صلتكم بهم من اليوم.. وهم يسيرون على سنة أسلافهم في معاداة الرسالة.. كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وإذن.. فلا يعتبر رجاؤهم للآية مبادرة سلام.. لكنه شرك الردى.. ينصب لكم بغية تفتيت الوحدة التى تلتقون عليها.. ولا يكون لكم من بعدها وجود..

---

(١) الأنعام: ١١١.

انظروا: يزين بعضهم لبعض.. هكذا كتلة واحدة.. حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها.. ولا يزالون يقاتلونكم بالكلمة الخادعة حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا.. وإذا كان المجرمون يلتقون هنا على الباطل جماعة.. وإذا كانت روح الحقد تسلكهم قبيلا واحدا يتربص بكم الدوائر.. فكيف يكون موقف المسلمين.. الذين يدعون إلى الحق وإلى طريق مستقيم؟

إنهم فى حاجة إلى مزيد من الوعى يطلعهم على حقيقة أهداف القوم.. ليشجبوا فى النهاية دعاية القوم المغرضة.. ويلتفوا حول محمد ﷺ سدا منيعا يفوت عليهم أغراضهم.. ويكشف دعواهم الكاذبة بشأن السلام.. بينما هم ينسفون كل محاولة من أجل السلام! ومن أجل تفوق الإنس فى عدائهم.. وتعقد حيلهم.. يقدمهم السياق على شياطين الجن الذين تقصر حيلهم.. ويتضاءل خداعهم إلى جانب ما يبيت البشر لبنى جنسهم!

يروى عوف بن مالك عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا ذر، هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن»**.؟ قال: قلت يارسول الله: وهل للإنس من شياطين؟ قال: **«نعم، هم شر من شياطين الجن»**.

وبوحى من القرآن والسنة المطهرة يقول مالك بن دينار: إن شياطين الإنس أشد علىّ من شياطين الجن.. وذلك إنى إذا تعوذت بالله ذهب عنى شياطين الجن، وشياطين الإنس تجيئنى فتجرنى إلى المعاصى عيانا.

﴿ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾.

إن الأعداء لا يشكلون دولة داخل الدولة وليسوا هم أصحاب مملكة يقيمونها فى ملكوت الله العريض. وموقفهم المنحرف يقع فى إطار من مشيئته سبحانه ولو شاء ألا يقع.. ما وقع.. بيد أنه أراده خيرا يتاح للمسلمين أن يجنوا ثماره.. من خلال الصراع المستمر بين الحق والباطل.

وإذا كان جسم الإنسان يقوى بالرياضة.. فإن روحه تسمو.. من خلال جهاده المبذول فى مواجهة وسوسة الشيطان.

وإذن.. فإمساك الآية المقترحة رحمة بالأمة التى علم الله عدم إيمانها بالآية لو

جاءت فحال بينها وبين الهلاك بهذا الإمساك.

وكذلك كان اختبارها بالأعداء من شياطين الإنس والجن فرصة يربى فيها الله سبحانه إرادتهم حتى تصقل.. ليكونوا بعد ذلك أصلب عودا. وأشد مراسا.. وإذا كان الأمر كذلك.. فليتركوا الأعداء وشأنهم مادام وضعهم ـ المسلمين ـ فى اتجاه الخير على أى حال. ﴿فذرهم وما يفترون﴾.

ومن تمام نعمة الله سبحانه بالأمة المسلمة أن يكشف لها عن خطة هؤلاء الماكرين فى محاربة الدعوة:

إنها تبدأ بوسوسة عابرة فى ألفاظ منمقة براقة.. ثم هى وسوسة على مدى الأيام مكرورة متجددة.. كما يفيد التعبير بالفعل المضارع: «يوحى بعضهم»واستمرار هذا التزيين من شأنه أن يخلف انطباعا يعمق بمرور الزمن.. ثم يتحول من انفعال طارئ إلى عاطفة متأصلة.. تحن إلى العمل: ﴿ولتصغى إليه﴾.

ومع إلحاح الوسواس الخناس يكون الإنسان قد اتخذ لنفسه موقفا محددا يتجه به نحو الإثم مباشرة: ﴿وليرضوه﴾.

ولم يبق بعد ذلك إلا ممارسة الشر سلوكا: ﴿وليقترفوا ماهم مقترفون﴾.

وما دام الأمر كذلك.. فإن كل تهاون من قبل المسلمين وإن بدا ضئيلا.. يتحول فى غفلة الزمن إلى عمل وسلوك.

وكل توجيه يستهدف المسلمين فى أول الطريق.. وقبل أن يستفحل الشر يجب الاستماع إليه والالتزام به.. تفويتا لخطة الكافرين ومن ورائهم من اليهود الذين يباركون مثل هذا المكر إن لم يكونوا هم واضعى أسسه!

إن هذا التزيين لا يؤثر إلا فى قلوب «لاتؤمن» بالآخرة جزاء ومصيرا.. من قلوب الحسيين الذين يأخذون حياتهم بالطول والعرض ولا يتصورون يوما ينظر المرء فيه ما قدمت يداه.

وبذلك يتميز الفريقان تميزا لا شبهة فيه:

فريق هو من الآخرة فى شك.. يعمل لحساب الشيطان.. وفوقهم جميعا يستعلى المؤمنون بعقيدتهم.. فلا يسلمون قلوبهم فريسة طيعة لدعاة الفساد من

حزب الشيطان ذلك بأنهم: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

أنهم.. على هدى.. يقعدون منه مكانا عاليا فيرون من الكون مدى أوسع وآفاقا أرحب.. ومن ثم يقيمون حياتهم على أساس وطيد.. يجعل منهم قوة تعتز بشخصيتها.. وتكشف النقاب عن كل محاولة يراد بها إنزالهم من فوق قمة عالية لا يصعد الكافرون إليها: ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾!!

---

(١) البقرة: ٤، ٥.

عندما يتحكم الهوى

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[1].

أسفرت المؤامرة الغادرة عن وجهها الحقيقى حين عرض المشركون على الرسول ﷺ أن يجعل من أحبار اليهود وأساقفة النصارى حكما بينهم وبينه كما يستفاد من سبب نزول هذه الآيات الكريمة.

وإذن.. فالقوم الذين ينتقلون من طلب الآية إلى اقتراح الحكم.. لا يؤكدون عنادهم فقط.. ولكنهم يريدون منه عليه السلام أن يقف معهم فى قفص الاتهام على قدم سواء.. لينتظر معهم الحكم له.. أو عليه.. من فوق منصة عالية يتربع حولها أهل الكتاب الضالعين معهم فى خطتهم الماكرة.. يطلبون ذلك.. لا حبا فى أهل الكتاب.. وتقديرا لحكمهم.. لكنها محاولة يائسة لتجريد الرسول من معنى «الهيمنة» التى يمسك بها زمام الموقف.. إذا أخذ مكانه بينهم.. ينتظر مصيره الذى يقرره الأحبار والرهبان.

ثم هى من ناحية أخرى إبراز لعنصر آخر غير الرسول فوق مسرح الحوادث.. ولا بأس أن يكون هو اليهود.. فعدو العدو.. كما يقولون حبيب!

ولا يستبعد أن يكون هذا اتفاقا تم بايعاز من اليهود الذين يقفون وراء مثل هذه المحاولات التى تفوح منها رائحة خبيثة تفردوا بها دائما.

ومن هنا لا تتحدث الآيات الكريمة عن ذلك العناد.. ثم تشدد النكير على هذا الاقتراح الخبيث بنفى أن يكون غير الله حكما بعد أن أنزل الكتاب الكريم.

---

(١) الأنعام: ١١٤ـ ١١٧.

﴿أفغير الله أبتغى حكما﴾

ذلك ما لا يكون!

إن الرضوخ لمثل هذا الاقتراح تنازل عن خصيصة تلازم الجماعة المسلمة.. فهم: ﴿أشداء على الكفار﴾.

ومن مظاهر شدتهم عليهم رفض هذه المحاولة والتأبى على الانقياد لها.. لأنها تقف بهم موقفا مهينا.. يتراخى فى أيديهم الحبل المتين الذى هم به مستمسكون.. وتزحزحهم عن مكان الصدارة الذى هو مكانهم الدائم. ثم هى متاهة يشدون إليها حتى تضيع أمامهم معالم الهدى.. ثم لا يعودون منها سالمين. وكيف يستقيم فى ذهن عاقل أن يتجه إلى المخلوق يطلب منه الهدى.. متجاوزا الخالق القادر وحده على ذلك؟

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[1].

إنه لم يترككم سبحانه فى بيداء الحياة حيارى.. لكنه أمدكم بروح منه.. وحدد لكم المعالم لتنتهوا إليها.

﴿وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾.

إن الذين آتاهم الله الكتاب.. وهم الذين تطلبونهم اليوم حكما.. من أشد الناس إيمانا بحقيقة القرآن.. وأعمقهم معرفة به! فلحساب من هذا التحكيم المقترح.. بعد أن عرفتم الحكم سلفا؟! إنها الرغبة فى التشهير وعرقلة المسير!

ثم إن الأحبار لتعلم ذلك بتعليم الله إياهم فى كتبهم.. وليس ذلك إلى عقولهم وحدها.. فلن يستطيع عقل قاصر يحكمه حقد مقيم أن ينطق بالصواب إذا طلب منه ذلك.

---

(١) يونس: ٣٥، ٣٦.

إن واحدا من أحبار اليهود أو أساقفة النصارى «إذا نزلت به نازلة، أو سئل عن معضلة، فزع إلى فكره فشحذه.. وإلى نفسه فأيقظها.. وإلى معلوماته فاستعرضها.. عسى أن يعثر فيها على حل، أو يظفر منها بجواب.

أما النبى فهو على العكس من ذلك: يعمد إلى نفسه فيسكن من حركتها. وإلى أفكاره فيهدئ من ثورانها.. وإلى حواسه فيقلل من تعلقاتها ويبعدها عن محسوساتها.. ثم ينتظر الوحى من الله. والتلقى عن الملأ الأعلى. فإذا نزل عليه الوحى من عند الله صدع بذلك فى وضوح لا يمازجه تعقيد.. ولا يشوبه التواء عن القصد ولا تحير فى الغاية»[1].

لعل هذا بعض أسرار التعبير فى قوله تعالى: ﴿أفغير الله أبتغى حكما﴾؟

فقد لاحظ بعض المفسرين أن الله عز وجل لم يأمر الرسول أن يقول لهم ذلك.. وإنما استفهم مستنكرا أن يكون غيره حكما.. كأن ذلك أمر فطرى معلوم لدى كل ذى عقل.. والأمر من الوضوح بحيث ينطق به المرء تلقائيا.. دون حاجة إلى تلقين.

وأهل الكتاب يعلمون ذلك جيدا.. لكنهم يسكتون سكوتا مريبا.. فمثل هذا الهراء يحقق بعض أغراضهم فى التشويش على دعوة الإسلام.. وإن لم يصب منها مقتلا.

وحتى أهل الكتاب فى عصرنا يؤمنون بالقرآن وصحة نسبته إلى الحق سبحانه.. ومنهم الكاتب الفرنسى «سيديو» الذى قال: «لو وجدنا القرآن فى فلاة.. ولم نعرف من جاء به.. لعلمنا أنه من عند الله».

وهذا المعنى بالذات.. قد بلغ حد الضرورة لدى المسلمين.. ومنهم الإمام الشافعى حين قال: «لو ضاع حبل ناقتى لوجدته فى القرآن».

وهذه الحقيقة الراسخة لا يذهب بها شك عارض: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾.

فالحقائق اليقينية الثابتة.. لا تؤثر فيها شكوك المنحرفين أبدا.. وهذه قاعدة ذهبية يؤدبنا بها القرآن.. لتكون أساسا من أسس معاملة الآخرين: إن كل حقيقة

---

(١) المرحوم الشيخ يوسف الدجوى ـ رحمه الله ـ فى بحثه : «الفلسفة والنبوة» ص ٥.

تتصل بالدين.. أو بالرسول.. أو تتعلق بواحد من عامة المسلمين وخاصتهم.. ينبغى أن تظل فى مكانها ثابتة لا تريم.. ولا يمكن لشائعة مغرضة أن تنال منها..

وكثير من الناس تسوقهم الأهواء فى غفلة منهم.. فيجرون وراء تهمة تتجه نحو إنسان ثبتت لهم نزاهته وكفاءته.. ثم يغالطون أنفسهم فى نفس الوقت.. إذ يستمعون إلى شائعة لايؤيدها منطق.. متجاهلين مواهبه التى عززها المنطق.. وشد من أزرها الواقع الماثل.

وهكذا.. يجب أن تبقى الحقائق.. صاحبة الكلمة العليا.. بعيدا عن كل محاولة يرمى بها أعداء الحياة كلَّ رجل رشحته مواهبه لينال حظا فى حياته.. لم ترفعهم قواهم إليه.

إن كلمة التوحيد مبدأ ثابت لا شك فيه.. ولكنهم يجادلونك فى الحق بعد ما تبين .. بمحاولات التشكيك المستمرة المغرضة.. وإذا كانت الحملة هذه قد حققت بعض أغراضها .. فإن فى ثباتك وصحابك على التوحيد عزاء يفوت عليهم أغراضهم. وماذا بعد الشك فى القرآن إلا أن تتطلعوا إلى غيره استكمالا لما فاته.. وحاشاه؟!

وليس يصح فى منطق العقل أن تتجهوا إلى مصدر أرضى تطلبون فى رحابه أمنكم.. بعد أن تمت كلمة ربك صدقا وعدلا.. نظرا وتطبيقا..

إن مثل هذا الاتجاه يصبح ـ من حيث لا تحتسبون ـ طاعة لأعدائكم يحشركم معهم فى زمرة واحدة تضرب فى بيداء الحياة على غير هدى.

﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم. وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

وسوف يظل هذا التحذير قائما إلى يوم القيامة.. ينبه المسلمين إلى الحرص المستميت على ما بين أيديهم من تراث أصيل تبذل المحاولات لتدميره... أو إقصائهم عنه.

إن كثرة الملتفين حول معنى دنيوى مادى لا تصبح تشريعا لهذا المعنى.. فليست الكثرة مقياسا منطقيا تنزل الأقلية على حكمه طائعة بالتخلى عن مقومات

ذاتها تأثرا بمشهد كاذب أجوف. وقد حكمت هذه الكثرة على أنفسها بالفشل حين اتفقت على إطلاق بناتهم ونسائهم عرايا فى الطريق.

وآخرون مرجون لأمر الله ينظرون إلى الإنسان على أساس من جنسه ولونه بغض النظر عن دينه وخلقه.. ثم يعلمون أطفالهم ذلك التعصب على أنه مبادئ ثابتة يؤيدها العقل السليم؟!

فهل تعتبر مثل هذه الكثرة الكاثرة قمة نتطلع إليها.. وننزل على حكمها؟ إنهم يبنون حياتهم على فراغ.. وتخمين .. وعلى أساس من ذلك الاستهواء الجماعى الذى يجعل من الحشر الهائل موجات من البشر تميل مع الرياح حيث تميل .. بينما يقيمكم الإسلام على مبادئ ثابتة ..يفنى الزمان وهى باقية.. وإذا كان ولابد من تبعية.. فلتكونوا أنتم القواد المتبوعين.. فعناصر القيادة فى كيانكم أنتم.

لقد كان «نابليون بونابرت» يفخر على أوربا كلها بقانون نابليون.. مع أن صلته به أنه وضع فى عهده.

فكم يكون رصيدنا من الثقة بالنفس.. والاعتزار بالماضى.. والرجاء فى المستقبل ونحن نقدم للحياة كلها عناصر بقائها المستمدة من الوحى المعصوم على لسان رائد لا يكذب أهله؟

وإذا كانت الحياة تدلل مثل هذه الكثرة.. فليس متاعهم دليلا على رضاء الله.. كما أن شدتكم التى تمرون ليست دليل غضب.. لأن تقدير الله سبحانه للأمم على أساس من أخلاقها.. وبقدر بلائها من أجل الحق والعدل:

﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلمَ بالمهتدين﴾.

خدعة مكشوفة!

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1].

يقولون فى أمثالهم: من أحبنى ولم يحب أبى.. فليس فيه خير لى.. ولا لأبى!

ذلك بأن محاولة الفصل بين الفرع وأصله نوع من التضليل يراد به القضاء على الاثنين معا عن طريق التفريق بينهما.. بحيث يكون التخلص من كل واحد على حدة أمرا ميسورا.. فضلا عن بطلان دعوى المحبة أساسا بالنسبة للابن المخدوع.

هذا الأسلوب الخادع فى دنيا الناس قد سلكه المشركون فى حربهم مع محمد عليه الصلاة والسلام... جاءه أبو جهل موفدا من قبل عصبة الكفر وقال للرسول ﷺ: ما نكذبك يامحمد... وإنك عندنا لمصدق.. وإنما نكذب ماجئتنا به.

فالخصومة - كما يدعون - ليست قائمة بينهم وبينه شخصيا.. لكنها بينهم وبين ماجاءهم به.. وهو الإسلام!

وإذا تعذر على ذهن منصف أن يتصور رجلا يصدق الناس حين يعاملهم ثم يكذب على الله تعالى حين يحدث عنه.. إذا تعذر ذلك على الذهن.. فإنه من السهل عليه أن يلمح خيوط مؤامرة وراء هذا المنطق الغريب.. تستهدف الرسالة.. والرسول معا.

وتبدأ الخدعة الكبرى بتبرئة الرسول من تهمة الكذب.. واتهام الحق سبحانه وتعالى بها؟! ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾.

وكان فى تقدير القوم حينذاك.. أن يفصلوا بين الرسول ودعوته.. فإذا ما نجحوا فى إبعاده والناس عنها.. بقى هو بعد ذلك.. وحيدا.. يذوى مع الزمن عوده.. بعد أن زايلته العصارة الحية.

---

(١) الأنعام: ٣٣.

ولكن الحق سبحانه وتعالى يكشف هذه النية الخبيثة.. وذلك بتحرير مراد القوم أولا وأخيرا: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

إنها محاولة لإقصاء الرسول عن رسالته التى هى حياته وفكره.. لعلهم بهذه المغالطة المكشوفة أن يستميلوه إليهم فى غمرة من هذا المديح الرخيص.

ولم يفرح الرسول ﷺ بما قالوا.. ولم تنطل عليه حيلتهم.. بينما رسالته تتعرض لخطر محقق. لقد فاض قلبه الكبير بالأسى من أجل قوم لا يكتفون بعدم الإيمان. بل يضيفون إليه محاربته والتعرض له.

ويطمئن الحق سبحانه وتعالى رسوله الكريم.. متوعدا هذا النفر اللئيم مسجلا عليه ظلما فريدا فى بابه.. يدفعهم إلى جحود الشمس فى وضح النهار.. ثم يبين للرسول أن المعركة إنما هى بينهم وبين الله القادر على رد كيدهم إلى نحورهم.. فلا تأس على قوم يحادون الله.. يجعلون من وجودهم الهزيل حجر عثرة فى طريقه المستقيم.. وكن أنت على ثقة بربك الذى سينتقم لك من عدوك. وإذا كانوا يعترفون بصدقه الآن فقط.. فليكن هذا الاعتراف نقطة يثبون منها إلى إبطال الحق الذى يحاولون تعطيل مساره.. وتلك هى عقدة الموقف كله.

إنهم يكرهون الحق.. فهم يبتغون إلى ذلك سبلا شتى.. ومن ثم.. فدعهم لله الذى يدافع عن دعوته.. ويثبت دعائم رسالته.

والعجيب أن الباطل مازال حتى اليوم.. يتواصى بهذه الخدعة الماكرة.. ويستعيد الكفار اليوم خطة أسلافهم تلك فى معاداة الحق وأهله.. على لسان المستشرقين أمثال «رودول».

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى مقال له بمجلة الثقافة مايو ١٩٣٩: «فمهما اجتهد المستشرق فى بحثه بعد ذلك ـ بعد اعتقاده بطلان دعوى النبى المخالفة لدين المستشرق ـ فإن تلك المقدمة الباطلة التى بدأ بها كافية وحدها أن تضله وتخرج به من زور وباطل إلى زور وباطل. ومهما اجتهد فى الإنصاف بعد ذلك فتلك المقدمة التى اعتقد، كافية وحدها لإقحامه فى أقبح الظلم. وحمله على أكبر الإثم.

وأى إثم أكبر من تكذيب نبى الله وخاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه؟

من المبدأ بغير نظر ولا تمحيص. وتلوين حقائق التاريخ كلها بما يلائم ذلك التكذيب؟ وأى ظلم فى التقدير والحكم أقبح من نسبة الكذب إلى صاحب الدعوة الكبرى. دعوى الرسالة من الله قبل النظر فى دعواه.. حتى إذا نظروا وواجهتهم أدلة صدقه ﷺ ـ عن يمين وشمال ـ برأه منصفوهم من تعمد الكذب ليتهموه بالوهم والانخداع فى النفس؟

برؤوه من تعمده ﷺ الكذب على الله فى دعوى الرسالة ليتهموه بأنه ﷺ كان مخدوعا فى نفسه. يعتقد أنه رسول. وهو فى الواقع غير نبى ولا رسول ؟ أى برؤوه هو.. واتهموا الخالق سبحانه.. الذى حقق كل ما ادعاه محمد بن عبد الله ولم يكذبه فى جزئية واحدة فى حياته النبوية الممتدة ثلاثة وعشرين عاما.

فإن كان محمد فيما زعموا مخدوعا فى نفسه. فكيف لم يكن مخدوعا أيضا فى الناس؟وفى القوى الطبيعية التى لاتخضع لتكهنات مخدوع ولاسلطان مخلوق؟

فالتطابق التام الذى كان بالفعل بين ما جاء به محمد وبين الحق الخارجى والنتائج المحتومة الرائعة التى صارت إليها دعواه.. وتصديقها له فى كل ما ادعاه.. هذا كله هو البرهان العلمى على أن دعواه ﷺ كانت من صميم الحق. تتفق مع كل حق آخر فى ميادين الفطرة التى لا حول لإنسان فيها ولا قوة. وليس هناك بين الباطل والحق فرق أكبر أو أكثر من أن الباطل لا يصدقه الواقع ولا توافقه السنن الفطرية فى قليل ولا فى كثير.

لكن المستشرقين مثل «رودول» الذين قالوا بصدق محمد وكذب رسالته لم يكونوا يريدون إحقاق حق ولا إزهاق باطل. وإنما كانوا يريدون التوفيق بين دلائل صدقه ﷺ وبين تلك المقدمة التى بدؤوا بها. والتى لو سلموا ببطلانها للزمهم أن يخرجوا من دينهم ويدخلوا فى دينه. وهذا بالطبع مالم يكونوا ليفعلوه. فهم من أجل ذلك يمضون فى سبيلهم يشكون فيما شاؤوا أن يشكوا فيه من حقائق التاريخ.

وإذا كان القوم لا يزالون سائرين فى شكهم.. فعلينا أن نفهم أن المعركة بيننا مازالت مستمرة.. وأن عقابهم المضمر فى الآية الكريمة يوشك أن يحيق بهم إذا أعددنا لهذه المعركة عدتها من الإيمان بالله.. والجهاد فى سبيله.

دروس .. للدعاة

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)﴾[1].

فى سلسلة المعارك الدائرة بين الحق والباطل، وقف إبراهيم الخليل عليه السلام يلزم قومه كلمة التقوى.. ويأخذ بيدهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة.. ولقد بذل العقل الوثنى المتحجر أقصى ما يمكن من جهده لعزل إبراهيم عليه السلام عن التأثير فى مجرى الحياة. وكسب مزيد من الأتباع.. ورمت الوثنية بكل ما فى جعبتها من سهام حفاظا على عروش خاوية تستمد وجودها من غموض مصطنع.. وتعتمد فى بقائها على كدح العاملين من الناس. ويكشف إبراهيم عن هذه الأوضاع العفنة.. ويفضح الدوافع الخبيثة التى تقف من وراء هذا التصور المادى للحياة: ﴿أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وما تعملون﴾.

إنها لفتة يسيرة إلى بساطة مايدعوهم إليه وقربه من عقولهم إلا أنهم يلجؤون إلى العنف بعد أن أعوزتهم الأدلة.. تماما كما يلجأ الصبيان الأغرار إلى حفنة من تراب يرمون ناصحا لهم أمينا! ﴿قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم﴾.

ومثل هذه العقلية المتحجرة.. والمشاعر المنحرفة لا تشجع على البقاء معها ... ولا تصلح أن تكون بيئة مناسبة لدعوة صالحة. والفرار منها والحالة هذه أمر لازم.. وهو فرار من قدر الله إلى قدر الله.. إلى أرض مباركة تزكو فروعها.. وتمتد ظلالها..

---

(١) الصافات: ٩٥ ـ ١٠٥.

﴿وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين﴾.

وكثير من دعوات الإصلاح تموت فى مكانها.. وإن استجمعت عناصر النجاح.. لأنها لم تجد المناخ الملائم.. والتربة الخصبة.. وحتى تستأنف سيرها المبرور فى خدمة الحياة لابد لها من الهجرة.. وتكون الهجرة حينئذ جزءا من نجاح الدعوة ذاتها. ولقد هاجر عليه السلام إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين. لكن هجرته تلك المكانية قد زاملتها هجرة أخرى فى المشاعر والسلوك: إن حياته الآن تجنح إلى المغيب.. وقد يكون مفيدا أن يرزق ولدا.. وولدا صالحا.. تمتد به حياته.. ويبقى به أثره: ﴿رب هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم﴾.

وليس غريبا أن يجيش صدره عليه السلام بهذه الأمنية الغالية.. ويلهج لسانه بمثل هذا الدعاء إلى الله.

فهو أولا: إنسان يلبى غريزته الفطرية ليحفظ النوع.

وهو ثانيا: رسول مكلف بتبليغ رسالة.. وإذا كان السامر قد انفض من حوله وتآمر عليه قومه.. فلم لا يطلب الولد الصالح يحمل من بعده تبعات الرسالة لتظل كلمة التوحيد باقية فى عقبه؟ وعندما يجيبه الله عز وجل إلى طلبه يمكنه أن يودع الحياة قرير العين مطمئن الفؤاد. ويسوق الله إليه البشارة بولد من أبرز سماته أنه: حليم.

إن إبراهيم عليه السلام يعلمنا أدب الدعاء. فهو لا يطلب ولدا ذكرا.. كما لا يرسم فى خياله صورة لهذا الولد كصاحب جاه أو سلطان يفتن به الناس: إنه يطلبه.. شريطة أن يكون من الصالحين: فالذين يحلمون بولد يكون مهندسا.. أو ضابطا.. أو مدرسا لا يمكن أن يتحقق أملهم إلا إذا كان الولد صالحا.. وسوف تبقى كل هذه الوظائف باطلة المفعول إذا تخلى عن ولدك الصلاح.

فالصلاح هولب الأمل.. وما بقى الصلاح.. فما فات الابن بعد ذلك أمر يبكى عليه.

ويستجيب الحق سبحانه وتعالى لدعاء خليله.. فيهبه الولد الحليم.. الذى يمكن ـ بحلمه ـ أن يجتاز محنة مقبلة.. وامتحانا عسيرا.. ويقف الوالد والولد معا أمام هذه المحنة التى تصفها الآيات الكريمة: ﴿يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾.

يقول المؤرخون: أمر إبراهيم الخليل ولده أن يأخذ حبله ومديته.. لينطلقا عبر الوادى ليحتطبا.. ويمضى الفتى الصغير إلى حيث أمره أبوه. وعلى رغم أن الأمر وحى من الله عز وجل.. ولابد من تنفيذه إلا أن الخليل يأخذ رأى ولده فى قضية هو أحد طرفيها.. وبذلك يعينه على طاعته وتنفيذ أمر الله. ورحم الله والدا أعان ولده على بره.

وقد أثمر الموقف الرشيد ثمرته المرجوة حين قال إسماعيل: ﴿**يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين**﴾.

ويفصل المفسرون هذا الموقف الرهيب فينسبون إلى إسماعيل قوله لأبيه بين يدى الذبح المتوقع: «إشدد رباطى كيلا أضطرب. واكفف ثيابك حتى ينتضح من دمى فينقص من أجرى.. وتراه أمى فتحزن».

وتلتفت الحياة إلى الطفولة الباكرة وهى تعلم الحياة معنى الفداء! قد يساعد إبراهيم على تنفيذ أمر الله أنه وحى لابد من تنفيذه.. لكن.. ما بال الغلام الصغير؟ أية قوة خفية عارمة كانت تشد من أعصابه فى لحظة تزل فيها أقدام الأبطال؟

إن كثيرا من المغامرين الذين يدعون البطولة.. تخلت عنهم شجاعتهم بينما هم يساقون إلى غرفة الإعدام. لكن الغلام الصغير لا يصمد فقط لهول الموقف.. بل يعزز رشده بالحكمة وفصل الخطاب فى لحظة يضيع فيه صواب الإنسان ويغيب عقله!

لقد كان من المعقول أن يفر الفتى من أبيه كغزال شارد وله ألف عذر.. فالحياة هناك... مع الرفاق.. جميلة ومن حقه أن يستمتع بها.. ولكنه نسى كل هذا.. وذكر شيئا واحدا: هو طاعة أبيه الأواه الحليم.

ولا ننسى موقف الخليل الراشد.. وكيف اتسم بالمرونة والحكمة بحيث جاء فى باب التربية منهجا سديدا.. ساق فى النهاية إلى رضوخ الصغير لأمر الله.

وإذا حفلت الصورة بمعانى..الفداء والصبر والطاعة.. فإن من وراء ذلك كله درس يجب أن تعيه أذن واعية. وبخاصة فى مجال تربية الأبناء: فليس عيبا أن يأخذ الأب رأى ابنه فى شؤون حياته..وليس ظلما أن ينتصر الابن فى بعض الأحيان.

بل إن اشتراك الابن فى صنع حياته.. من شأنه أن يخلق فى وجدانه شعورا بذاته.. وبأن له كيانا مستقلا وصوتا مسموعا. حتى إذا استقل فى حياته العملية غدا.. زودته هذه التجاريب بعناصر النجاح.. وجاء عمله متسقا.. على صورة نفسه المتسقة الواثقة وإنها لتدل على تقدير القرآن الكريم لحرية الرأى.. كأروع ما تكون الحرية..

ولقد منح الإسلام العبيد في كنفه من الحرية ما يحلم به كثير من الأحرار فى أمريكا على حد تعبير أحد العلماء.

ولقد جاء موقفه من غلامه وفاء بخطته العامة فى الدعوة إلى الله.. حين تدرج بقومه من الكوكب.. إلى القمر.. إلى الشمس.. إلى الذى فطر السموات والأرض حنيفا. أى أنه بيسر وسهولة ينتقل من الكون إلى المكون.. على نحو لا يصدم المشاعر.. بل يُحَوِّلُها لتسير فى اتجاه سليم.

وها هوذا: يذكر المدية.. والحبل.. والحطب.. ثم يعرض الأمر فى صورة رؤيا منامية.. مجردة من صرامة الواقع. **﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾**.

إن النجدة لتهبط من السماء فى اللحظة التى يسلم الاثنان قلبهما لله عز وجل.. وهكذا فى شؤون الحياة: يجىء نصر الله والفتح عندما يسلم الإنسان وجهه إلى الله سبحانه.. وهو مفهوم العبادة لله والخضوع لأمره.

وسلام على إسماعيل فى ذكرى وفاته وفدائه. فى ذكرى منطقه الفذ.. الذى يجب أن يأخذ مكانه فى مقدمة الأناشيد الوطنية التى يرددها التلاميذ فى مستهل كل صباح.

إنه معنى فى الفداء.. ما أحوجنا إليه اليوم... إنه نشيد الساعة.. فى وقت تدق فيه ساعة الجهاد.. أما هل الذبيح إسماعيل.. أو إسحاق.. فلا ينبغى أن يدور حوله الجدل.. فإن لإبراهيم ولدا.. علم الحياة معنى الفداء الذى نفتقده اليوم..والمفروض علينا.. وفى ذكرى ضياع فلسطين العزيزة.. والمسجد الأقصى الذى بارك الله حوله. وأمام وجه النكبة الكالح يطل علينا من شرفات التاريخ.. مفروض أن نترسم خطى أبى الأنبياء.

فنسير عبر هذه الصحراء الممتدة.. ومعنا الحبل.. والمدية لنسوق أمامنا إلى الميدان الواسع هذا الابن اللقيط.. ثم نذبحه هذه المرة!

ويومئذ يفرح المؤمنين إذ يصبح الذبيح.. إسرائيل!!

القرآن... والإنسان

﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1].

فى خيالى مشهد من مشاهد الطبيعة:

جماعة من مهندسى فن البناء كلفوا بإقامة مجموعة من المساكن الشعبية.. وأعلنت الحكومة عن جوائز مغرية لكل مهندس يجىء بناؤه محققا للغرض المقصود. وتمت عملية البناء.. وفاز واحد منهم بالجائزة الأولى.. ورغم أن البيت الذى شيده يتيه شموخا وجمالا.. إلا أنهم بدل أن يبحثوا عن سر جماله.. راحوا يرمونه بمختلف التهم.. ووقف المهندس الفائز يقرعهم بحجته قائلا:

يا إخوتى، مادة البناء لدينا جميعا واحدة.. والطلاء واحد.. والمساحة متساوية.. وقد اتحد زَمَنُ البناء مع كل ذلك.

فلماذا جاء بنائى شامخا يشق الفضاء.. بهيجا يسر الناظرين؟ لا شك أن هناك أمرا وراء الحجارة.. والطلاء.. والمساحة.. إنه الاستعداد الفنى.. الذى تفردت به دونكم جميعا.

ونغمض عين الخيال هذه.. لنفتح عين الحقيقة على مشهد آخر يرسمه القدر الأعلى.. ولله المثل الأعلى..

---

(١) هود: ١ ـ ٥.

إن الحق سبحانه وتعالى يفتتح سورة هود بهذه الأحرف الهجائية: ألف... لام..ر.. وكأنه سبحانه يهز العقول الغافلة حتى تستيقظ. وتوازن وتستنبط.. لتصل إلى هذه الحقيقة: إن هذا القرآن مؤلف من جنس ما تنظمون منه كلامكم. أى أنه بناء مكون من نفس المادة التى تصوغون منها خطبكم وشعركم.. فلماذا تقاصرت هممكم.. وعجزت عن الإتيان بمثله؟ لماذا تعود الهمم إلى قواعدها حيرى.. فلا تستطيع الإتيان بمثله.. ولا حتى بأقصر سورة منه؟!

إنها القدرة العليا إذن.. إنه كلام خالق القوى والقدر.. وأين قدرة المخلوق من قدرة الخالق سبحانه ؟! وهذا القرآن المؤلف من تلك الحروف.. والمتفرد بالإعجاز وحده.. مفتوح أمام قلوب تنشد الخير وتسعى إليه.

ويمكن لكل راغب فى الإيمان به أن يوازن بينه.. وبين ما ينظمون وما ينثرون.. ليكون بعد ذلك على بينة من ميزة القرآن العظمى.. أنه: **﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾**.

إنه يتصف بالإحكام.. فكل آية.. وكل كلمة وحرف يأخذ مكانه المناسب ليحقق الغرض كاملا.

وفى دائرة من هذا الإحكام تجىء الآيات مفصلة على قدر.. وبحساب موزون.. ولو أن وصف «التفصيل» سبق سمة «الإحكام» لربما ساغ للملحد أن يدعى أن قدرا منها قد فصل هكذا اعتباطا وقبل أن يتداركها الإحكام والضبط وحسن التقدير! ولكن الحق سبحانه وتعالى يقطع الطريق على مثل هذا الوهم فيثبت له الإحكام سلفا.. ليعلم الناس أن كل تفصيل فى العقيدة أو الشريعة إنما جاء فى نطاق من حكمة الله التى وصف بها كتابه لأول وهلة حتى يبادر الناس إلى الإيمان بها.. والعمل لها.. على ثقة ويقين. على عكس كلام البشر الذى يتسم بالخلل.. وبالخفاء والغموض.. لأنه نتاج عقل تقتله جرعة.. على لسان تؤلمه بقة.. وتسكته شرقه!

وبناء على هذا الدليل المقنع يجب أن يكون التوحيد ثمرة مرجوة تعقبه كما يعقب الليل النهار: ﴿ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير. وأن استغفروا

ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله﴾.

ومعنى ذلك أن بساطة الدليل وبلاغته معا تقود إلى الحقائق الآتية:

١ ـ الوحدانية: ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾.

٢ ـ الإيمان برسالة محمد ﷺ: ﴿إننى لكم منه نذير وبشير﴾.

٣ ـ ضرورة التقدم وانتزاع الأقدام من أوحال الخطايا.. تمهيدا لصحة الإيمان.. والنجاح المأمول فى كل مجال من مجالات الحياة.

والآيات الكريمة بهذا الأسلوب تخاطب العقل.. وتلمس القلب.. وتنير الوجدان بما تعدهم به من متاع حسن. وهو معنى يجب أن يفهمه الداعون إلى الله متأسين بالقرآن الكريم: ليواجهوا فى الناس ملكاتهم كلها.. حتى يحققوا بعد ذلك ما يهدفون إليه.

لقد جاء القرآن الكريم دواء يطهر القلوب من عواطف دخيلة على طبيعة الإنسان.. وكانت الآى تترى منشئة فى صدور القوم عواطف جديدة نحو عقائد التوحيد والبعث.. وإذا كان قلب الإنسان هو مستقر العقائد ومستودعها. فقد سلك القرآن الكريم فى دعوته إلى الحق طرائق شتى ليغرس فى تربته بذرة التوحيد:

تارة يسوق الدليل عن طريق العقل المفكر.. لعل فى مقدماته ما ينعطف به إلى الحق.

غير أن الاتجاه إلى القلب عن طريق المنطق.. كثيرا ما يصدم بحشد من الأوهام والعقد النفسية التى تراكمت على مر السنين.. وتصبح حينئذ حاجزا يمنع الدليل أن يستقر فى أعماق الإنسان.. بل إن الدليل بمقدماته قد يرتطم بهذا الحاجز.. فيضطرب وضعه ليصبح الحد الأكبر أصغر.. مثلا على نحو ما قال الشاعر:

أقول له عمرا فيسمع خالدا ويقرؤها زيدا ويكتبها بكرا!!

ومثل هذا الصنف من الناس لا يخاف إلا بعينيه! وهو فى حاجة إلى الخوف كأسلوب فى الترهيب ربما لوى عنقه إلى دعوة الخير. **﴿فإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير. إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير﴾**.

والحق سبحانه وتعالى لا يأمر رسوله أن ينذرهم بفعل الأمر «قل» بل إنه يخاطبهم مباشرة: **﴿إنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾**.

فليس التخويف مجرد كلمة يفوض إليه إطلاقها.. بل هو أمر واقع يتحدث عنه.. ثم إن فى التعبير ما يشير إلى ضرورة المبادرة إلى الإيمان.. قبل أن يحل هذا العذاب المتوقع.. والذى يوشك أن يلم بهم قريبا.

وتكشف الآية الكريمة عن حيلة يلجأ إليها الصبيان فى لهوهم حين يواجهون بأمر جاد: إنهم يلجؤون إلى سياسة النعام التى تدفن رأسها فى الرمال حاسبة أنها فى خفية عن أعين الرقباء!. وهم كذلك يستخفون.. ويتدثرون بثيابهم فرارا من دعوة الرسول ﷺ.. وإعراضا عنه.

وما علموا أن علم الله محيط بهم.. يرى ذات صدورهم وما تكنه.. وحديث أنفسهم الخفى فى معرض علمه سبحانه وتعالى.. وكفى بذلك تهديدا من شأنه أن يعود بهم إلى الله.. وهيهات.. **﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾**.

خصائص المؤمن

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[1].

تفرد أسلوب القرآن الكريم فى خطابه للإنسان عن بقية المذاهب والفلسفات التى فشلت فى أن تصوغ شخصيته على نحو يحقق هدفه فى حياته:

ذلك بأنها إما أن تخاطب فى الإنسان عقله.. وتنسى الجانب العاطفى فى كيانه. وإما أن تنطلق مع المتعة الحسية فتحط من قدر العقل المدرك.. كقبس من نور الله يهدى للتى هى أقوم.

ولقد ضاعت قيم الحياة بين هذين الاتجاهين.. من الإفراط.. والتفريط.. وجاء القرآن الكريم ليخاطب الجانبين معا: فواءم بين جمود المعانى النظرية.. والفورات العاطفية مواءمة حقق الإنسان بها وجوده كخليفة لله فى أرضه.. بدافع من حفظ توازنه الذى حققه القرآن الكريم..

ثم إن الإسلام.. يمضى مع الإنسان فى كل مراحل حياته: هو معه ضد نفسه.. وضد شيطانه.. وأخطار مجتمعه.. يشد من أزره.. ويمهد له السبيل.. ويوضح أمامه الغاية.. كى يصل إليها آمنا مطمئنا.. ولم يتخل عنه لحظة من زمان.. ليصير لبنة صالحة يستقيم بها البناء.

وهذه الآية الكريمة إحدى الآيات البينات.. التى تخاطب فى الإنسان ملكاته كلها.. وتتعامل مع كل جانب فى حياته.. لينطلق بكل قواه عبر مستقبل أفضل.. فى صحبة أفراد مجتمعه الذين يشكل معهم جماعة حية متكافلة.. بما ترسم من خصائص يمكن لو أحسن الاتصاف بها أن يتحقق الأمن والرخاء للفرد والمجتمع:

---

(١) الأحزاب: ٣٥.

فأولى خصائص المسلم: أن يكون سلاما لمن حوله.. وما حوله .. شعاره السلام دائما.. فى بيته.. وفى حياته العامة.. ثم تنداح الدائرة ليصبح السلام ترنيمة عذابة الإيقاع فى فم الأمة كلها.

وهو سلام يختلف فى مفهومه كمظهر للجماعة الإسلامية عن هذا السلام المزيف.. والذى يتنادى به المستعمرون!

إن سلامنا الذى ندين به طريق سهل معبد.. تحف به الورود، وتظلله الرياحين. سلام يحفظ على الإنسان أغلى نعمة فى حياته.. الأمن.. الأمن الذى يصون أعصابه وقدراته فلا تذهب سدى.. لكن السلام فى فم الاستعمار وإن بدا خداعا براقا.. فهو طريق وعر.. رسمه فوق هوة عميقة.. تحف به أفواه المدافع.. وتظله قاذفات اللهب. وإذا صار الإنسان سلاما.. يكف جوارحه فلا تؤذى أحدا بقول أو عمل فلابد له من قاعدة صلبة تشد من أزره.. وهو الإيمان.

وبذلك يلتقى السالب بالموجب.. فيشع الضياء فى كيان الإنسان. وهنا يأتى دور القنوت.. العمل.. كنتيجة منطقية وعملية للسلام.. والإيمان: ولا يحسبن المسلم أنه إلى هنا قد بلغ المنتهى.. وأشرف على الغاية.. لأن واجبا خطيرا ينتظره: أن ينزل إلى معترك الحياة.. شاكى السلام لينقل إيمانه.. وعمله إلى قلوب الآخرين.. وهذا يفرض عليه أن يكون من «الصادقين» الذين يصدقون غيرهم النصيحة.. ليتسنى له الإسهام فى إيجاد المجتمع كبيئة تمارس فيها الفضائل الإنسانية. واكتفاء الإنسان من الغنيمة بالإياب.. بالإيمان الشخصى دون الأخذ بيد الآخرين يجعل منه جوهرة.. لكنها تحت التراب.. وسوف يصبح إناء الفخار الذى يشرب به الناس أغلى من جوهرة مطموسة تحت الثرى!

وإذا كان ذلك أمرا عسيرا فى منطق الكسالى.. فإن فى الصبر طاقة تمد الإنسان بالقوة.. وتطرد من خياله عوامل اليأس. وعندما يستجمع الإنسان هذه الخصائص.. ربما ظن فى نفسه بلوغ الكمال.

وهنا مكمن الخطر.. الذى يحس به الشيطان المريد.. فيهم بالوسوسة التى يحس معها الإنسان بالزهو.. حيث بلغ فى الإيمان مرتبة عالية.. وما أحوج

الإنسان فى هذه اللحظة إلى «الخشوع» إلى التواضع الذى يطامن من كبريائه.. فيفوت على الشيطان أمنية يحشد لها جنده. وإذا ما صار مع ذلك من «المصدقين» يكون قد خالف هذا الشيطان عمليا.. ومن خلال تجربة يستعلى فيها على إغرائه بالمال الذى يكون التخلص من آثاره حينئذ انتصارا. يفر به الشيطان بعيدا بعيدا.

ومع كل هذه الفضائل.. يجب أن يكون ذكر الحق سبحانه وتعالى نهاية لمراحل من الجهاد.. انتصر المرء فيها على أهواء نفسه ووساوس شيطانه.. ليكون هذا الذكر أنسا به سبحانه.. ومع ذكره سبحانه.. يذكر عهوده ومواثيقه لتكون أبدا قانونا واجب التنفيذ.

ونعود إلى الآية الكريمة مرة أخرى: فماذا نجد؟ إن القرآن الكريم يسلك الرجل والمرأة معا فى كل أوامره ونواهيه.

فالإسلام.. والإيمان.. والعمل.. والصبر.. والتصدق.. والذكر.. كل أولئك فضائل فى متناول المرأة والرجل معا. وليست حكرا على الرجل... يتفرد به دون المرأة.. التى يمكن فى ظل القرآن الكريم أن تكون عنصرا فعالا فى ترقية الحياة.. فى حدود طبيعتها كأنثى. وهو تكريم للمرأة أى تكريم. لم يبلغ شأوة ما يتشدق به المستغربون الذين يظنون سبق المذاهب الغربية إلى تكريم المرأة. بينما الآية الكريمة .. بكل كلمة وحرف فيها.. تصف الرجل والمرأة فى سياق واحد.. إطلاقا لملكات المرأة.. ودفعا لها إلى الإسهام فى كل مجال من مجالات النشاط الإنسانى. فإذا هى فعلت ذلك.. فى حدود آداب الدين وأحكامه حققت للوطن مكاسب وانتصارات تكون فى ذات الوقت آية على أهمية الدين فى صنع الفرد وصياغة الأمة.. صياغة تعجز عنها مذاهب الأرض جميعا.

الطريق إلى معرفة الحق

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[1].

عندما يضيق المعاند بالحق.. فإنه يحاول النيل منه.. فإذا لم يجد فيه مطعن اتجه يدافع من الحقد إلى الداعى متهجما راميا إياه بما هو منه براء. وناهيك بقوم يرمون بالجنون. أعقل العقلاء على ظهر الأرض. وعلاج هذا الصنف من الحاقدين لا يكون بالعصا.. وإنما بالموعظة الحسنة.. وهو ماجاءت به الآية الكريمة.

إن الحقيقة لتظل مائعة فى ذهن الإنسان.. ضائعة فى واقع حياته.. وكان المشركون كذلك فى حكمهم على الرسول ﷺ وهاهى ذى الآية الكريمة تطل عليهم من الأفق العالى.. آخذة بأيديهم على الطريق الموصل إلى الحق.. بالوسائل المجدية: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ هى:

﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾، وسوف يهديكم التفكير السليم إلى الصواب.

إن الحكم بأن القرآن سحر مفترى.. وبأن محمد ﷺ مجنون.. هذا الحكم.. نتيجة لنظرة خاطئة.. ووضع عقلى منحرف.. أدى إلى هذه الحماقة الكبرى.

والآية الكريمة تقف بالعقل فى الزاوية المستقيمة والتى منها يرى الصواب الذى سلك الطريق إليه:

إنها تقول لهم: انهضو وتخلصوا من كل تصور سابق.. ثم ليخل كل واحد بنفسه.. أو بصاحب له.

ثم تفكروا فى هذا الجو الهادئ الوديع..

وسوف تلتقون حتما بالحق الضائع، لأنه أبدا لا يشرد عن طالبه، ولا يضيع

---

(١) سبأ: ٤٦.

بين اثنين أبدا.

والنتيجة الحتمية لهذا التفكير المستنير معروفة سلفا بناحيتها السلبية والإيجابية وهى:

أولا: محمد ليس بمجنون.

وثانيا: هو رسول الله إليكم جميعا.

(وكأن القرآن يقول لهم: أريحوا أنفسكم من الإنكار. وأريحوا الرسول من الجدل والمناقشة.. وتعالوا فاعرفوا الواقع الذى سيكون.

وهذا هو الأحرى بكم وما يجب أن تعرفوه)[1].

ويلاحظ أن الآية الكريمة تسجل نتيجة التفكير السليم.. فتنفى تهمة الجنون بإعلانها.. ولاتنتظر من القوم أن يقولوها.. ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

وتأملوا جيدا: إن القرآن لا يفرض هذه النتيجة فرضا.

ذلك بأنه «صاحبكم» الذى تعرفونه.. وعاشرتموه فعرفتم من صدقه وأمانته ما يرد عليكم تهمتكم النكراء.. والتى أنتم أحق بها وأهلها.

أما هو:

فـ ﴿نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

---

(١) تفسير سورة الأنعام للشيخ شلتوت رحمه الله - ص٣٩٣.

من دلائل صدق الداعية

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

إذا تعذر على المعاند أن يكتشف صدق من يدعوه بعقله.. ولم تطاوعه نفسه على ذلك... فإن فى الواقع الماثل ما يؤكد صدق الدعوى.. لو اتخذ المعاند إليها سبيلا.

فالرسول ﷺ لم يسألهم على التبليغ أجرا.. فهم من مغرم مثقلون. بل إنه يقول لهم: كل ما حصلته من مغانم.. فهو لكم جميعا.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

إن الدعوة معروضة بذاتها.. وهى غنية بمبادئها.. ولا مصلحة هناك للداعى من ورائها بغض النظر عما يعانيه فى سبيلها، ومنطق العقل يقول: متى صحت الدعوى فى ذاتها وسلمت نية الداعى إليها فقد توفرت لها خصائص القبول.

وتصبح محاولة الفرار منها مع ذلك شهوة تتحكم.. وأغراضا شخصية.. لا عقلا يفكر.. ولا رأيا ينازل رأيا.

وإذن.. فالعيب فى نفوس المعاندين لا فى الدعوة المعروضة؛ لأن الدعوة هنا تعلن عن نفسها... ويقف من ورائها الإخلاص والتجرد. ويشد من أزرها الدليل العقلى.

والتجربة شاهدة بنزاهة الداعى.. وصدقه.. وأمانته فمالهم لا يؤمنون.. وإذا قرئ عليهم القرآن لا يستجيبون؟

وصحيح أنه ﷺ يطلب أجرا. ولكنه الثواب المأمول ممن أرسله سبحانه وتعالى.. والداعى هنا يفتح أمام المدعويين بابا أوسع للرزق.. الرزق المعنوى

---

(١) سبأ: ٤٧.

الباقى. وهو خير وأجدى مما يسارعون فيه من عرض الدنيا.

يفتحه لهم.. فلعلهم يحاولون تغيير الوجهة.. ليصلوا إلى بر الأمان.

وفى نفس الوقت يلوّح لهم بأن ذلك الأجر المأمول بيد الله العليم.. الشهيد.. القائم على كل نفس بما كسبت.. القادر على أن ينتقم منهم لو أراد سبحانه.

وشىء آخر.. فهو يقول لهم: إذا كنتم تتناصرون علىّ.. وتتنادون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول.. فإننى فى حمى القوة التى لا تغلب.. والحصن الذى لا يضام.. فاعلموا جيدا نتيجة العدوان. ومع هذا الدفع المستمر إلى الحق يقف فعل الأمر «قل» فى صدر الآية الكريمة شاهدا بصدق الرسالة التى ينكرونها.. لافتا الأنظار إلى حقيقة تفرض نفسها وهى:

[أنه ﷺ يقرأ كلاما لا يمكن أن يكون محمداً قاله من عند نفسه، مادام مأموراً بالقول هكذا فى كل آية].

التجارة الرابحة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

يستدعى الله المؤمنين جميعاً بهذا النداء الكريم. . ليسابقوا إلى نصر قريب. . وإلى مغفرة من الله ورضوان. . ودون هذه الغايات البعيدة. . إيمان. . وعمل. . الإيمان بالله تعالى. . والعمل بشريعته. . على سنة رسول الله ﷺ.

إن الإيمان بالله سبحانه يحقق الأمن فى داخل النفس. . فإذا بالجوارح تنشط من عقالها عاملة آملة. فى ظل ممدود من السكينة وطمأنينة الروح. . ناسجة على منوال رائد لا يكذب أهله. . فلا يضل مسعاها. . ولا يخيب رجاؤها. . وكلما كثر نتاجها. . واتسعت دائرة الرخاء. . ضاعفت النفوس من جهدها. . من أجل مجتمع وجدت فيه بردها وسلامها. . ورد إليها الجميل. . رعاية وتقديرا صانت بهما وجودها. فإذا ما دقت طبول الحرب. . نفرت خفافا وثقالا إلى ساحة الوغى. . دفاعا عن مجتمع الإيمان. . الذى أحست فيه بوجودها. . ووجدت فيه ماعملت من خير محضرا. على أن يكون المال هو خط الدفاع الأول.

تبذله رخيصا. . فى مواجهة أعداء ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله. فإذا دعا إلى بذل النفوس داع. . كانت ثمنا زهيدا. . يبذله المؤمن راضى النفس. . ليبقى الدين أبدا. . فلا ينطفئ له نور. . ولايسكت له صوت.

وذلكم هو الخير. . إن كنتم تبحثون فعلا عن الخير.

إن الأمة التى تدور حول نفسها فتنفق مالها فى اللهو واللعب. . والتى تضن بالنفس فى معركة المبادئ. . سوف تخسر يوما ذلك المال. . وتفقد غدا هذه النفوس. . عندما يغلبها العدو على أمرها. . بينما أمة الخير. . تبذل أموالها. .

---

(١) الصف : ١٠، ١١.

وتحمل أرواحها على أكفها.. تشترى بذلك حريتها فى الدنيا.. وجنة الله فى الآخرة.. فإذا عاشت.. فرضت على العالم احترامها. وإذا ماتت.. بقيت من ذكراها بقية يمتد لها بها عمر فى الآخرين.. ولا يبقى إلا أن ننبه الدعاة إلى الله.. إلى ما يجب أن يكونوا عليه تأسيا بالآية الكريمة.. التى ترسم هذا الخط المستقيم لينقلوا خطاهم عليه: هل أدلكم؟

فالدعوة هنا تعرض نفسها بعيدا عن الإرهاب والقمع.. ولكنها تبدو واضحة جلية.. تدعو إلى العمل بها.. لا سوقا بالعصا أوجرا بالحبال.. وإنما.. لأن الداعية التى ينادى بها تعبير عنها.. ودليل عليها.. هل أدلكم؟

ويوم يكون كذلك .. فإن المبادئ القويمة.. تصبح واقعا ملموسا عاش لها الداعى.. فعاشت به فى دنيا الناس.

العودة.. إلى القرآن

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[1].

كان المسلم مع القرآن كأنه فى بيته العامر، آمنا فى سربه.

معافى فى بدنه. . ميسرا له فى رزقه. ولكنه اليوم أدار ظهره للقرآن. . فخرج من بيت العزة. . إلى حيث قيدته من الدنيا أغلال. . ومن النفس أطماع.

وإذا دخل المشركون فى الهجر دخولا أوليا. . فإن المسلمين يندرجون تحت مظلة الهجران بما أحدثوا من أمور صرفتهم عن تدبر هذا القرآن والعمل به.

يقول ابن كثير فى تفسير الآية الكريمة:

يقول تعالى مخبرا عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: **﴿يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾**.

وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه كما قال تعالى:

﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغو فيه﴾ الآية.

فكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام فى غيره حتى لا يسمعوه. . فهذا من هجرانه.

وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه. وترك تفهمه وتدبره من هجرانه. وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه والعدل عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه.

وفى محاسن التأويل لابن القيم: هجران القرآن أنواع:

الأول: هجر سماعه والإيمان به.

الثانى: هجر العمل به، وإن قرأه وعلمه.

الثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه.

---

(١) الفرقان: ٣٠.

الرابع: هجر تدبره وتفهم معانيه.

الخامس: هجر الاستشفاء والتداوى به فى جميع أمراض القلوب وكل هذا داخل فى قوله تعالى: ﴿إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾.

وإن كان بعض الهجران أهون من بعض. أجل:

لقد خرج المسلمون اليوم من بيتهم.. من القرآن.. وهجروه إلى غيره.. فتحاكموا إلى قوانين الأرض.. فتحكمت فيه تقاليد غريبة عنه وعنهم. وتفشت فيهم العلل.. ولو صحا فيهم الضمير اليوم فعرضوا أنفسهم على مرآة القرآن فماذا يجدون؟

تغيرت الملامح.. بل تغيرت الوجهة.. فازدادت مسافة الخلف وأصيبت مطية العمر بالهزال كلما ابتعدنا عن القرآن. ونحن مطالبون فى شهر القرآن أن نجدد حياتنا بالعودة إلى رياضه اليانعات وإلى قيمه البديلة الجليلة، وصدق ابن الجوزى حين قال: يامن مطية عمره قد انضاها الحرص.

هلا كففتها قليلا بزمام القناعة.. فرب جِد أعطب. ورب أكلة تمنع أكلات..

وكثرة الماء: شرق أو غرق.. فاستنقذ نفسك بالقرآن.

الحياة فى غيبة الإيمان

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾[1].

يعرف الناس أنفسهم ويتأملون الكون من حولهم وهذا هو «العلم». ثم يحاولون معرفة الله تعالى عن طريق آثاره وهذا هو «الإيمان». وعلى ركيزتين من العلم والإيمان.. تكون سعادة الإنسان.

فإذا امتلك أسباب العلم فسخر الكون بذكائه.. ثم فقد العقيدة الدافعة. ذهبت أعماله سدى وصار كالمجنون فى بيت من الزجاج.

ولقد كان «قارون» على علم «بالكيمياء» كما يقول المفسرون.. بل فاق فيها علماء عصره. لكنه فقد الإيمان العاصم.. فبغى عليهم. وبدل أن يشكر نعمة التفوق بتوظيفها لصالح الأمة.. إذا به يطغى طغيانا طوح به بعيدا.. وخلا قلبه المفتون بالدنيا من كل هم.. إلا هم الثروة التى صارت غاية وجوده.

وكان لابد من عقاب.

ولم يكن العقاب مرضا.. وإنما كان الاستدراج.. الذى فتح الله به أبواب رزق نما وتضخم حتى صار ثروة هائلة فى خزائن تعجز العصبة من الرجال الأقوياء عن حمل مفاتيحها.. وناهيك بالثروة ذاتها.. ثم شغل قلبه بهذه الثروة ففرح بها فرحا أطغاه فأعماه عن واهب الثروة سبحانه.

وفى ساعة الصفر.. واجهه قومه بالنصيحة: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

وكان على هذه النصيحة لكى تصل إلى سمعه أن تعبر بحرا من غروره ثائر الموج.

وذهبت نصيحة المخلصين مع الرياح.. وبقيت العبرة التى ستبقى أبدا: لقد

---

(١) القصص: ٧٦.

فرح بثروته.. وضحى بطاعة ربه سبحانه.. فخسر أثمن ما يحرص عليه الإنسان وهو: حب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

وما قيمة الإنسان إذا ملك الدنيا.. ثم خسر نفسه؟

ولقد خسر نفسه، وثروته معا.. وسوف يظل آية لمن شاء أن يعتبر من الأفراد والدول التى ترتكب نفس الحماقة.

وأية حماقة أكبر من إنسان يتكبر على من يشاركهم مصير الموت والفناء من أبناء التراب.

إن الزهو على الناس بالصحة أو العصبية أو النسب أو المال. أو بسلطان الوظيفة الكبيرة خليق أن يجر صاحبه إلى الاعتزاز بذاته.. ثم الخطأ.. ثم العمى عن رؤية الخطأ.. ثم الهلكة والبوار.

وهذا هو الذى حدث بالفعل. فاعتبروا يا أولى الأبصار.

القلوب ... العاقلة

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

فى حياة الأمم لحظات من المد والجزر.. والرقى والانحطاط.. وقد تنتهى بها أقدارها يوما إلى الذبول.. ثم الاندثار. طبق سنة الله تعالى فى الاجتماع.

وتبقى الديار والآثار شاهدة على الناس.. داعية إلى النظر والتدبر. واستخلاص الدروس والعبر. التى تضىء لهم دروب الحياة.. فلا يتكرر الخطأ.. ومن ثم لا يكون هلاك.

والآية الكريمة تأمر بالسير والنظر ـ وعليه مزيد من الإنكار المشبع بالتعجب من هؤلاء القاعدين الجامدين فى ديارهم. وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾؟!!

ولا يكفى أن ترى به عينك المشاهد. أو تسمع أذنك الأصداء ثم لا يكون اعتبار.. بل إنه السير المستبصر المتعمق «فى» الأرض وما عليها.. وما فيها.. من بقايا الأمم البائدة .. والتى ضاعت بعد أن جحدت برسالات الله تعالى.. فلم يبق من بعدهم إلا آثارهم تدل عليهم.. عبرة لمن يعتبر. ودرسا لمن يزدجر.

وإذا اصطلح العرف السائد على أن البصير هو من يملك عينا باصرة.. وأن الأعمى هو من حرم نعمة البصر فلا يميز بين الألوان والأشياء.. فإن الأمر فى منطق القرآن أعمق من هذا: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

أى أن هناك عينا متفتحة صحيحة.. ولكن لا يقف من ورائها قلب مؤمن.. بصير بالعواقب. وهناك عقل ذكى.. لكنه لا يعدو أن يكون كما يقولون: آلة حاسبة.. أما صاحب القلب المتفتح.. والبصيرة النافذة إلى الأعماق.. فهو البصير.. وإن فقد حاسة البصر.. وهو السامع وإن فقد حاسة السمع!

---

(١) الحج: ٤٦.

والآية الكريمة دعوة صريحة إلى تأمل سنن الله تعالى فى الحياة والأحياء.. وما أكثر الذين يثقلون أدمغتهم بالمعارف الطائلة.. لكنهم لا يملكون القلوب الشاعرة العاقلة.

وما أكثر الذين يملكون هذه القلوب.. بيد أنهم يهيمون بها أو تهيم هى بهم على موائد المتعة الرخيصة والمغانم الزائلة.

ونحن بحكم الإيمان مطالبون أن نواجه الحياة بقلوب.. تعقل الخير.. وتتلمسه. وتعرف الشر.. وتنفر منه. فإن إطلاق العنان للقلوب.. هكذا بلا قيد ولاتعقل.. يبدد الطاقة.. ويحبط العمل.

الأسـرة
فـى موكـب الإيمـان

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

على الأغصان الخضر فى مملكة الطير. وفى الغابات فى دنيا الوحوش.. وتحت الماء.. فى عالم الأسماك.. كل يبحث عن زوج يسكن إليه! وحتى فى عالم الجماد: ينجذب السالب إلى الموجب.. فإذا اللقاء نور وضياء.. تتقدم الحياة على هداه. وكذلك الإنسان.. بل إنه فى سلسلة الأزواج لأثمن حلقة فيها!

وهكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يجمع بين الزوجين على كلمة الله.. فإذا هما كيان واحد.. وإن نشأ أحدهما فى القطب الجنوبى.. والآخر فى القطب الشمالى!!

وتستمر العلاقة بما ضمن لها سبحانه من وحدة النوع فى قوله جل وعلا: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾. وما يترتب على هذه الوحدة من توافق وتكيف يحقق السكن والمودة.. والرحمة والقرار.

وتمضى السفينة بالزوجين فى بحر الحياة.. يدفعها نسيم المودة والرحمة.. مودة يتبادلان فيها الحب العميق.. يبذل كل منهما من أجل صاحبه ما يدعم هذه العاطفة الشريفة. ثم يزدحم البيت بذرية يشعران معها بالعبء الثقيل.

وربما توارت مسحة الجمال على جبين الزوجة المجاهدة.. بعد ما بذلت من طاقة. وما حققت من إعداد وتربية. وأيضا.. سوف ينقسم الدخل الشهرى على خمسة مثلا.. بعد أن كان على زوجين اثنين!

وتبدأ المشكلات. وهى مشكلات فرضتها الظروف على أسرة لم تعد الزوجة فيها هى هى فى لحظة الزواج! أين صحتها؟ أين جمالها؟ بل أين الابتسامة

---

(١) الروم : ٢١.

العريضة.. التى يبسطها الأمل فى مستقبل سعيد؟! ذهب كل ذلك .. أو جله.. مع المشكلات الطارئة.

لقد تنازلت الزوجة عن كل ذلك.. ليكون عطاؤها لأولادها. الذين يدرجون اليوم بين يديها ومن خلفها. وقد يتلفت الزوج حوله.. باحثا عن الفردوس المفقود.. والجمال الغارب! لكن الرحمة الممنوحة من ربه هى التى تمسك بأطماعه قبل أن تتعلق بزوجة جديدة!؟

تمسك بالسفينة مرة أخرى.. حتى تأخذ سمتها الواثق.. عبر النهر الطويل.

الرحمة: التى هى عطاء خالص. لا ينتظر العوض.. ولا يندم على ما أخذته الأيام من زوجة تعطيه من قواها.. بلا مقابل.. الرحمة... هى التى تتكفل بتهدئة نفسه القلقة، إذا لم تعد زوجتك جميلة.. فقد أنجبت لك ذرية جميلة. أى أن جمالها لم يخرج من البيت!.. بل ما زال معك.. فى سحنة أولادك أنت! وإذا كانت مريضة: فيكفى أنها لم تمرض جسمك يوما !.. وحفظتك فى حضورك وغيبتك.. فكنت تمشى فى الناس مرفوع الرأس. موفور الكرامة. وربما قالت نفسك يوما: لم تعطك ذرية يمتد بها عمرك. بينما غيرها تعطى. وتجيب الرحمة أيضا: إن المعطى هو الله تعالى.. وليست الزوجة.

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾[1].

ومن الذى قال إنها لم تقدم لك شيئا؟

إن زوجة.. وفية.. مخلصة.. تقف من وراء زوج يصوغ الأجيال.. وله فى كل عقل فكرة.. وفى كل قلب عاطفة.. وفى كل عصب قوة.. إن زوجة من هذا الطراز هى العظيمة التى تقف من وراء عظيم.. عظيم ليس له طفل بالذات يحمل اسمه أو رسمه.. ولكن ملايين الرجال يحملون فكره.. وحبه.

---

(١) الشورى: ٤٩، ٥٠.

مفهوم الأسرة المسلمة

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (١).

تتحدث الآية الكريمة عن ختام الدعوات التى جاشت بها صدور «عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا» ومع ذلك ففى قلوبهم عزائم الخير والبر:

إنهم لايطلبون مجرد التقوى. لكنهم يتطلعون إلى مكان الصدارة فيها. أى أن عبوديتهم للحق سبحانه وتعالى أنبتت لهم أجنحة تطير بهم فوق مستوى الحياة العادية. ليشموا رائحة الجنة من مكانهم العالى.. بعد أن تحرروا من قيود الشهوات الأرضية.

بيد أن هذه الهمة البعيدة لم تمت فى قلوبهم غزائر الجنس.. أو الأبوة.. فهاهم أولاء يطلبون الزوجة.. كما يطلبون الذرية. وإنه لتطلع محكوم بالإمامة فى باب التقوى: فهم لا يرجون مطلق زوجة. بل الزوجة التى تقربها العين.. وتستقر الأوضاع.. وتمضى مع زوجها على الطريق.. وبخطى فساح إلى التقوى.

الزوجة التى تقول: رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة..وتحت رايتهما ذرية تنشأ صالحة بما ترى وتسمع من أبوين صالحين حفهما جلال المقصد ونبل الغايات. فإذا هى ذرية صالحة. يمتد بها العمر. وتزدهر فى ظلها الحياة.

وهنا يتضح مفهوم الأسرة المسلمة كما أرادها الحق سبحانه.. وكما يتشوف إليها مجتمع راغب فى الكمال.. لا كما تصورها أوهام المضلين الذين يريدونها متعة عابرة. لا تحقق أثرا فى دنيا الناس.

ولكم فرضت علينا ثقافات غريبة عن أمتنا وديننا.. وقضينا فى صحبتها زهرة أعمارنا. هذه الثقافات التى كان من بعض مقرراتها:

حرمان العباقرة من الزواج.. حتى يتفرغوا لمسؤولياتهم الضخام؟! وأنى لهم

---

(١) الفرقان: ٧٤.

هذا؟ أنى لهم تحمل هذه المسؤولية.. والنجاح فى ممارسة دورهم العظيم بكفاءة وأمانة.. بعد أن حرموا من هذا النموذج للحياة الفاضلة؟ والذى يمدهم بعواطف الخير اللازمة لإنجاز هذا الدور؟

ألا إن الأسرة بوتقة تنصهر فيها عزائم الرجال.. حتى إذا أخذت على عاتقها مسؤولياتها كان رصيدها من تربية الأسرة وقودًا يمدها بالحركة المباركة. ألا وإن عقول الدارسين المسلمين أعز من أن تشغل بمثل هذه الترهات والظنون بينما الواجب أن نشغلها بالحقائق الثابتة مستمدة من كتاب ربنا وسنة نبينا.

وفى الوقت الذى يعود فيه الشيوعيون إلى أحضان الشيوعية من بعد عدائهم الطويل لها.. فإنه من المحتم علينا أن نزداد نحن استمساكا بها. وتدعيما لها.. فنرصُد الوقت والجهد والمال.. لبناء أسرة على هذا الطراز العالى.. فنبحث عن زوجة.. ذات دين.. تعين على أمر الله.. وتمدنا بذرية تبقى بها المبادئ.. ويظل بها الخير موصولا.

تجاوب القرآن.. مع فطرة الإنسان

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[1].

إذا كان للفلاح جهده المبذول عبر الحقول. .فإن ذلك لا يخفى حقيقة أن الله تعالى «هو» الذى أنشأ الزروع بعد أن لم تكن. .ورفع إليها الماء ـ ومن شأنه الترسب ليسرى عصارة حية فى أعلاها. . فتثمر ما نحن مأمورون بأكله. . فضلا منه سبحانه وتعالى.

ومن تمام شكر فضله تعالى إخراج حقه «إيتاء» عن طيب نفس يراد لها أن تظل عينا ثرة بالخير حين يكون ذلك العطاء وقت الحصاد. . وقبل تنقية الحب. . والعودة به إلى مستقره فى البيت. . وعندما تفوت المالك هذه الفرصة. . ويرجئ التصدق إلى حين. . فإن غريزة التملك تكون قد تشبثت به. . ومارست نشاطها فعلا. . حين تصور لصاحبها ضخامة الثروة. . وما يمكن أن تدره من ربح فى المستقبل. وكان هو فى غناء عن هذا التورط لو أنه تصدق مبكرا ولحظة الحصاد. . قبل أن تثور فى نفسه هواجس الربح والخسارة.

وحتى يعود الجميع فى ذلك اليوم فرحين. . عبر حقول استحالت فى ذلك اليوم مهرجاناً ينتظم الغنى والفقير على سواء.

ونذكر فى هذا المجال حديث رسول الله ﷺ لأسماء ـ رضى الله عنها ـ فيما رواه البخارى ومسلم. **«أنفقى ولا تحصى فيحصى الله عليك، ولاتوعى فيوعى الله عليك»**.

يعنى: بادرى بالإنفاق بدل عد المال والانشغال بضبطه وإحصائه وزنا أو كيلا وعدا. . ليسهل حينئذ ذلك الإنفاق.

---

(١) الأنعام: ١٤١.

وكان الظن بمنطق البشر.. أن ترحب الآية الكريمة بالإنفاق الزائد ولو بلغ حد الإسراف.. انتصارا للفقراء. بيد أن ذلك لم يرد.. وجاء النهى عن الإسراف كاشفا عن بعد آخر من أبعاد التجاوب القرآنى مع فطرة الإنسان:

فلو صار كل مسلم «ثابت بن قيس» الذى تصدق بكل تمر نخله.. ولم يبق لولده شيئا لبقيت المشكلة كما هى.

وإذا كان من جديد فهو: تحول الفقر من طائفة.. إلى طائفة أخرى! ولكن الإسلام لا يدافع عن فقير بالذات.. ضد غنى بالذات. ولكنه يقاوم الفقر كظاهرة يجب أن تزايل الجميع.. ومن هنا يحذر الباذلين من خطر الإسراف.. الذى يحدث فى لحظة عاطفية.. ثم تهدأ بعدها النفس.. ويبدأ الندم يؤثر فى نفس الإنسان.. وينطفئ حقد الفقراء.. لتتقد جذوته فى صدور الأغنياء!!

إن الإسراف فى الصدقة اعتداء كمنعها تماما. وقليل منها يدوم به الود.. ويتحقق فى ظله التوازن.. خير من كثير يصدم النفس.. فلا تجود بعد تجربة فقدت بها فى لحظة.. ما جمعته فى عام.

رجل يتحدى أمة

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[١].

رجل واحد.. فقط.. يتحدى مجتمعا بأسره.. بما فيه أبوه! ولو كان يمارس حياته بمنطق المزايدات. لخاف على لقمته.. ووظيفته.. فلم يهاجم صاحب اللقمة. وجالب الوظيفة!

ولكن الرشد الإلهى الممنوح لإبراهيم عليه السلام يضىء له مدى أبعد.. ليرى مسبب الأسباب سبحانه.. فيتحرر من جاذبية النفس أولا.. ليصعد به يقينه إلى آفاق أعلى من مطالب هذه النفس ورغابئها.

ومن ثم.. كانت وقفته تلك الصامدة تعبيرا عن هذا الرشد المبكر.. والذى يتحدى به حضارة وثنية دخلت كل بيت.. وعششت فى كل قلب.. غير أنه ـ وفى زحمة وسائلها الإعلامية ـ كان أعلى منها صوتا.. فى محاولة لتغيير مجرى الحياة التى تتبدد طاقاتها. وتنفد مواردها تحت أقدام أصنام لا تسمع ولا تبصر. أصنام: تعددت بتعدد الأمزجة.

وعندما يعيش الإنسان عبد ذاته. وأسير لذاذاته.. تناوشه الأهداف المختلفة فتحبط سعيه. وقد تراه العين يسعى على قدمين مسرعا إلى أمام.. إلا أنه ـ فى غيبة الإيمان ـ يحاكى «بندول الساعة»: فهو يمشى ليل نهار.. ولكنه يدور حول نفسه.. ومهما سار.. فلن يقطع أكثر من هذا القوس المحدود!

وتجىء الوثبة المباركة على أكمل ما تكون قواعد المناظرة... فلا مجال هنا لتجريح الأشخاص.

بيد أنه يطرح القضية ليصل معهم فيها إلى فصل الخطاب: «ما هذه التماثيل»؟ طبعا: لاشىء!! ومع ذلك.. فأنتم.. بالذات.. تعبدونها.. ولو فعل ذلك غيركم من الأمم الجاهلة.. لوقف الجهل فى أيديهم عذرا.. لكن.. تعبدونها

---

(١) الأنبياء: ٥٢.

أنتم.. بالذات.. هذا هو موطن الغرابة؟!!

إنه بذلك يواجه كرامة الإنسان بالخطر المحدق بها.

ومن أجل الحفاظ على هذه الكرامة يجادلهم.. وبالتى هى أحسن.. حتى فى أخطر قضية تتصل بحاضر الإنسان ومستقبله.

إن الجهد المطلوب للظفر بالحق.. والوقوع على الصواب أقل من الجهد المبذول فى صياغة الشتائم والتفنن فيها. والسباب المتبادل قد يثير الرماد فى العيون.. لكنه أبدا لن يخفى الحقيقة.. ولو نزل المحقون إلى درك الشتائم لكانت فرصة تمهد لانتصار المبطلين! لأن المعركة الساخنة المغرضة هم أقدر الناس على الانتصار فيها فهم وحدهم الذين يملكون أسلحتها من التهريج والمغالطة!

أما البحث الموضوعى، بغية الوصول إلى الحق فى موضوع النزاع.. فهو وحده آية الرشد الإنسانى.وهو أيضا عبرة الساعة من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام.

الصوت
والفتنة النائمة

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[1].

إذا كان للصوت العالى تأثيره على الإنسان بما تحدثه الضوضاء من خلل فى أجهزة الجسم الحيوية.. فإن للصوت الخفيض المتمارض المتماوت أيضا ضرره البالغ. بصحة الإنسان الخلقية!

بل إن النبرة المتماوتة المثيرة.. أضر بالإنسان. الذى يمكنه التغلب على آثار الضوضاء بمستحدثات العلم.. ثم يعجز عن مقاومة الشرخ الحادث فى بنائه النفسى والخلقى.. من وراء النقمة المتماوتة. وعلى ذلك قول الشاعر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه وليس يموت المرء من عثرة الرجل

والآية الكريمة تنبه إلى خطر الكلمة المتمارضه على لسان أمهات المؤمنين لما لهن من مكانة عليا: «إن من عرف رجلا. ولم يعرف منه غير كونه رجلا. يقول: رأيت رجلا: فإن عرف علَمه يقول: رأيت زيدا أو عمرا.

فكذلك قوله تعالى: ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾.

يعنى: فيكن غير ذلك أمر لا يوجد فى غيركن. وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين.

وكما أن محمدا عليه السلام، ليس كأحد من الرجال كما قال عليه السلام: «لست كأحدكم».. كذلك قرائبه اللاتى يشرفن به. وبين الزوجين نوع من الكفاءة»[2].

إن مركزهن من الأسوة الحسنة للمؤمنين والمؤمنات. يفرض عليهن مسؤولية مضاعفة.. تقف بهن دائما على قمة التقوى.. ثم الحفاظ على منزلتهن على

---

(١) الأحزاب: ٣٢.

(٢) الفخر الرازى: فى تفسيره للآية الكريمة.

رأس هذه القمة أبدا.. بالبعد عما ينقض بناءها.. حتى هذه الكلمة التى تخرج لينة طرية.. فتوقظ الفتنة النائمة.

«ينهاهن سبحانه حين يخاطبن الأغراب من الرجال أن يكون فى نبراتهن ذلك الخضوع اللين. الذى يثير شهوات الرجال. ويحرك غرائزهم، ويطمع مرضى القلوب. ويهيج رغائبهم. ومن هن اللواتى يحذرهن الله هذا التحذير؟

إنهن أزواج النبى ﷺ. وأمهات المؤمنين اللواتى لا يطمع فيهن طامع. ولا يرف عليهن خاطر مريض. فيما يبدو للعقل أول مرة وفى أى عهد يكون هذا التحذير؟

فى عهد النبى ﷺ وعهد الصفوة المختارة من البشرية فى جميع الأعصار. ولكنه الله الذى خلق الرجال والنساء يعلم أن فى صوت المرأة حين تخضع بالقول. وتترفق فى اللفظ ما يثير الطمع فى قلوب... ويهيج الفتنة فى قلوب. وأن القلوب المريضة التى تثار وتطمع موجودة فى كل عهد. وفى كل بيئة. وتجاه كل امرأة ولو كانت هى زوج النبى الكريم. وأم المؤمنين. وأنه لا طهارة من الدنس ولا تخلص من الرجس. حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس»[1].

وعندما يتجه التحذير إلى أطهر نساء... فى أطهر بيئة.. فإن الأمر بالنسبة للمرأة اليوم يصبح نذيرا مدمدما:

لقد كانت المرأة فى العهد الأول تسير فى طريق يسير فيه: أبو بكر.. وعمر.. وخالد.. وأبو عبيدة.. فلا ظل للفتنة هناك.. وإذا نجمت بوادرها فإن الآيات الكريمة تتنزل رادعة:

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾[2].

أما اليوم:

فإن المرأة تجاور فى عملها.. وفى سيرها رجلا من لون آخر!! وفى بيئة صار

---

(١) فى ظلال القرآن. (٢) الأحزاب: ٦٠، ٦١.

من مقرراتها: أنت جميلة.. إلى أن تتحدثى! تنفسى بعمق.. قبل أن تتكلمى!!

فالتحذير من ترقيق الصوت يصبح اليوم أمرا مفروضا.. فرارا من فتنة تتأهب للانطلاق. بل انطلقت فعلا بالناس على غير هدى. وإذا كان ولابد من قول.. فليكن ذلك القول المعروف المتداول.. بلا تكلف أو تزويق.

إن حرية التعبير كما هى مكفولة للمرأة.. فإن سلامة الأداء مطلوبة أيضا.. ومن سلامته: أن تصدق المرأة مع نفسها ودينها.. فتحتفظ بكل مظاهر أنوثتها لزوجها.. فى بيتها! وقبل أن تأخذها العزة بالإثم.. فتستكبر على هذا التحذير.. فإن الآية الكريمة ما زالت إلى يوم القيامة ناطقة بما يكسر هذا الإباء.

إن التحذير يتجه أساسا إلى زوجات الرسول ﷺ...

وعلى كل امرأة أن تأخذ نصيبها من الحذر والخوف.

وإذا كانت حريصة فعلا على أن تظل أسرتها قائمة على أصولها من الأخلاق.. فإن واجبها كمسلمة يفرض عليها أن تكف عن الكلمة المثيرة.. خارج البيت لتظل بيوت الآخرين قائمة ثابتة. ثم لتدخر لبيتها أجمل ما تملكه من كنوز.

صور من جدال المبطلين

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾[1].

لو كان فرعون ينشد الحق فى حواره مع موسى وأخيه عليهما السلام.. لكفاه ذلك الجواب عن سؤاله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

لا سيما وهو يرى مصداق ذلك فى نفسه.. وفيما حوله.. رضى أم كره.. ولكنه راح يتهرب من الحقيقة الآخذة بخناقه.. إلى أسئلة لا صلة لها بموضوع النزاع: ما اسم فلان.. وعلان... وفى الجنة هو .. أم فى النار ؟! ما صلة دقائق التاريخ الغابر بما نحن بصدده الآن؟ وماصلة الأسماء بموضوع الحوار.. وهو الحق المطروح على بساط البحث والنظر؟

تلك أمة قد خلت.. فلا فائدة من العودة إلى مسارب الماضى.. نجتر ذكرياته ترفا عقليا.. أو سردا آليا.. لا يغنى عن الحق شيئا فالمهم:

أن ذلك فى كتاب لا يضل ربى ولاينسى. لا ينبغى أن تشغل البال بحثا عن اسم فلان.. أو تصحيحا لموقف علان!

فالحقائق الموضوعية أولى بالبحث والنظر.. ثم الحكم. وهذه هى الطبيعة مبسوطة بين يديك:

إنها ملء السمع.. وملء البصر.. وكل ما فيها ينطق بأن الله واحد. فالأرض مهاد مبسوط .. ميسر.. ومسارب سهلة مكن الله بها من العيش فيها بسلام. والماء ينزل من السماء بلا طعم.. ولا لون.. ولا رائحة.. ومع ذلك فقد أخرج الله تعالى به ألوانا من الزروع والثمار مختلفة اللون.. والطعم والرائحة.

وهى بهذا الاختلاف.. تحدثك عن خالقها المريد.. والذى خلق فسوى..

---

(١) طه: ٥٣، ٥٤.

وهدى بمنهجه الراشد.. وبخلائقه التى تراها.. إلى أقوم سبيل.. لمن شاء أن يأخذ سمته إلى هذا السبيل. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾.

إنها آيات.. لا آية واحدة.. تغرى العقلاء بالبحث والنظر.. فأين هم أرباب العقول من هذه الطبيعة الشاهدة بالوحدانية؟ أفلا يعقلون أنهم مأمورون بالأكل ﴿كلوا﴾. بينما الأنعام هناك ترعى: ﴿وارعوا﴾.

وشتان بين الأكل بضوابطه وآدابه وتبعاته.. وبين بهيمة ترعى بلا ضابط بين السهول الخضراء ولا يردها إلا القيد فى عنقها. ولكن الإنسان هو الإنسان.

فمع هذه الآيات البينات.. ينزعه عرق من أبيه آدم.. فينسى.. ثم لا يتوب.. كما تاب!!

إنه إذن فى حاجة إلى التذكير.. لا إلى التشهير.. وكذلك فعل موسى عليه السلام. وهذه حقيقة ينبغى أن يعيها دعاة اليوم من «أولى النهى».

لقد قال الله تعالى لموسى وأخيه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾.

ألا وإن المسلم الغافل.. لأولى بالملاينة.. من فرعون!

نور الحياة..

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

فى الطريق إلى قريتى بستان فيه زرع ونخيل.. وكلما عدت إليها لاحت لى باسقات النخيل من بعيد.. لها طلع نضيد رزقا للعباد.. ولم يكن عجيبا أن ينعطف قلبى إلى نخلة هيفاء تشق الفضاء شقا.. وأن يتحول هذا الميل مع الأيام إلى صداقة:

ذلك بأنها كانت دليلى فى سجوة الليل.. تحدد لى معالم الطريق المتعرج.. فأعلق بها بصرى.. لتشدنى إلى حيث أجدنى على دروب القرية. وذات يوم.. سجا الليل. وغارت نجومه.. وكنت عائدا من سفر فى ليلة من ليالى الشتاء الباردة، وفى غيبه القمر الذى كنت أبصر فى ضيائه نخلتى.. أو بشير عودتى! وسرت فى طريقى لا أدرى أمشرق أنا أم مغرب.. وساءلت نفسى:

أين منى نخلة عالية كأنها «البوصلة» تحدد لى الجهات؟ وغاب تساؤلى فلم يتلق جوابا.. تماما كما غابت النخلة الفرعاء فى أطواء الظلام. وحبست أنفاسى بينما صفير الرياح يصك مسمعى.. وفجأة.. ارتطمت بجسم غريب يقف على حافة الطريق.. وبين سبرات البرد.. وعواء الريح أحسست بالدماء تنزف من يدى! لقد صدمتنى النخلة المعهودة فأدمت يدى. أجل.. النخلة التى كانت بالأمس تهدينى.. إنها اليوم تؤذينى! قالت نفسى: هل عرفت السر؟ لقد غاب القمر المضىء.. فغابت المعالم.. وعم الظلام.. فاختلط الحابل بالنابل!

قلت لها : وهكذا الدين فى حياة الإنسان!

فعندما يعمر الإيمان قلب الإنسان.. تمتد منه عبر الحياة أشعة تسعى من بين يديه ومن خلفه.. فيرى مواقع أقدامه.. فلا تزل منه قدم.. عندئذ.. تتسق خطوات الجوارح.. بلا صدام.. إلى غاية محددة واضحة.. كشفها ذلك النور

---

(١) المائدة: ١٥، ١٦.

المبين. وفى هذا الضوء الكاشف سيسخر العقل ذكاءه لخدمة الحياة.. ومن ورائه قلب سليم يمنحه أشواقه وآماله.. وعلى أثرهما تعمل كل الجوارح كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

وإذا الإنسان وحدة متماسكة.. أو قل شبكة من العروق والأعصاب سرت فيها شحنة من الإيمان أضاءت للناس معالم الطريق. وعندما ينطفئ ذلك المصباح فى كيان الإنسان.. ستختفى ملامح الوجود من حوله. وكما يموج الناس عند انطفاء النور فى محفل عام فترتطم الجسوم وتسيل الدماء.. تتصارع قوى الإنسان وملكاته فى هذا الظلام لتصبح حربا عليه.. لا عونا له! إنها تتحول إلى معاول هدم.. بعد أن كانت معالم للهدى.. وأداة للإيذاء بعد أن كانت وسيلة للسكن.. تماما كهذه النخلة التى غاب عنها القمر.. فأدمت الجسم وكانت قبل طوق نجاة!

إن الدين رقيب: وفى غيبة هذا الرقيب.. سينطلق القلب ليعب من نعيم الحياة ولذاذاتها عبا.. وسوف يستحيل ذكاء العقل مكرا ودهاء يسخر الذرة.. ويطلق الصاروخ للحرب.. لا للسلام.

واليد.. والقدم.. واللسان.. كلها ستشد الإنسان فى كل اتجاه.. بحيث يقف بينها على مفترق الطرق: بين غريزة ناشز.. وعقل عاجز! بين غريزة صماء لا تسمع.. عمياء لا تبصر.. وعقل تاه دليله فتفرقت به السبل.

ومن هنا تتضح لنا طبيعة المعركة بين الشيطان وجند الرحمن:

إن الشيطان المريد يحاول أن يفتح فى قلب الإنسان ثغرة حتى يصل إلى قراره فيتمكن منه.. وبعد ذلك يمسك بزمامه إذا ما أفلح وأطفأ فيه ذلك النور الكاشف. ولكن الذين اتقوا: ﴿إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾.

هؤلاء المتقون.. قد اتبعوا رضوان الله سبحانه فهداهم سبل السلام التى أفضت بهم إلى الطريق المستقيم.. فما زلت منهم قدم.. ولا غفل منهم القلب.. لأنهم اتخذوا الإيمان دليلهم فى متاهات الحياة..

ثمرة الإيمان

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

هناك قلوب قاسية. فى أكنة من دعوة الحق.. تمر بها دلائل اليقين فلا تؤثر فيها إلا كما تؤثر النسمة العليلة فى حجر أصم.

وإذا كان مثل هذا القلب يسير بصاحبه على غير هدى فيسوقه إلى «عذاب أليم» كما بينت الآية السابقة.. فإن هناك فريق المؤمنين الذين يختلفون عن هؤلاء سلوكا ومقصدا.

ويفصل بين هؤلاء وأولئك برزخ كبير.. يقف على ضفته الأخرى جند الرحمن وعلى ألحان الإيمان ينقلون خطاهم بقلب مفتح العين.. صادق النظرة.. يرى ببصيرته ما وراء حدود المادة.. ومشاهد الطبيعة.. ومن هنا يرفعون راية الحق الذى آمنوا به.. ويضحون فى سبيله. وفاء له.. وتطلعا إلى هذا النعيم الذى يزرى بكل ما يتقلب فيه المترفون. وأولئك لهم جنات النعيم.

فهو «النعيم» ولا نعيم وراءه. خالدين فيها؟! إنه الخلود إذن!

وهل هناك أمنية أحلى.. وأمل أعذب من بقاء يرفع الإنسان فوق حدود الزمان.. وحدود المكان؟ ثم يظل بعد ذلك حيا لا يبلى.. باقيا لايموت؟

وأنها لاستثارة حكيمة لحافز راسخ فى كيان الإنسان إلى الخلود! فكما أحضرت الأنفس الشحَّ بالمال.. فقد أحضرت حب الحياة أيضا.. ولعن الله إبليس: لقد استغل هذه الحاجة فى نفس آدم عليه السلام فحاول إشباعها لينجح فى امتلاك زمامه.. على نحو ما جاء فى القرآن الكريم:

﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾(٢).

وفتح عليه السلام حسه ونفسه لنداء ملك عليه أقطاره. ثم هبط على الأرض فكنا.

---

(١) لقمان: ٨، ٩. (٢) طه: ١٢٠.

وجاء محمد عليه الصلاة والسلام ليقودنا من جديد إلى الجنة.. على حد تعبير المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى. وذلك بعد أن خرجنا منها فى شخص أبينا آدم.

ويرسم القرآن الكريم الطريق إلى الخلود فى الجنات .. إنه الإيمان.. والعمل الصالح.

وإذا كان بعض الناس يعد ويمنى.. ثم لا يملك القدرة على الوفاء بما وعد.. وبالتالى يثبط الهمم التى تتقاصر فلا تكون عند حسن ظنه.. فإن الأمر بالنسبة للحق سبحانه وتعالى يختلف تماما: فما وعد به لا ريب آت. ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

العزيز.. القادر على تنفيذ مايعد.. دون معترض.. الحكيم الذى يربط بين الغاية ووسائلها.. تلك الوسائل التى لابد أن تكون فيها من روح المقصد الشريف.. فإن الجنة وهى مهبط الطهر والصلاح. لا تكون مستقرا إلا لكل عامل.. يبتغى وجه الله سبحانه.

وانها لحكمة بالغة.. تلك التى تجعل من الإيمان والعمل والصالح وسيلة إلى النجاح فى الدنيا والآخرة..

فإن صحة الأساس.. وسلامته على وجه الأرض تفضى أخيرا إلى السعادة هناك فى السماء..

هذا توجيه كريم.. يجند طاقات الإنسان كلها لتعمل من أجل غرض كريم.. وحاجة نفسية.. وهو الخلود:

وإذا الحياة نضال مستمر.. وعمل دائب يكون الرخاء نتيجته المتوقعة.. إن الإيمان الراسخ.. كهذا الريح السارى:

إن الريح يكثف البخار ويجمده.. ثم يسوقه سحبا تهبط على الأرض مطرا فتنبت جنات وحب الحصيد: وكذلكم الإيمان ياقوم: إنه القوة الجامعة المانعة: فهو يكثف القوى المخلخلة.. ويجمد الإرادة الرخوة.. ثم يسوقها إلى واقع الحياة نتاجا وعمرانا... نتاجاً وعمراناً تقف من ورائه ثمرات الإيمان الحقيقية من

الإخاء.. والمودة.. والتعاون.

تلك الفضائل التى لابد منها فى كل حضارة يراد لها أن تدوم.. وقد بهرت الحضارة الغربية الناس بمظاهرها لكنها فقدت الإيمان.. فصارت هيكلا لاروح فيه ولا حياة.. وإذا كان الصاروخ ينطلق فى الجواء العالية فيحقق غرضه لأن قاعدة إطلاقه سليمة قوية.. وكذلك الإيمان بشرطه: العمل.. والعمل الصالح..العمل بروحه.. بالنية الصالحة: الصلاة فى خشوع.. والزكاة عن طيب نفس..والحج على متن الشوق.. والصوم بنفس ترق فتجود.

ويمكن بعد ذلك أن تتجه بك الرغبة إلى جنة الخلد وملك لا يبلى.. لأنك قدمت للحياة أعمالا حية.. أبقتها النية وخلدها الإخلاص. فكان جزاؤك من جنس عملك.

آية بين فهمين

[١]

يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

عن «جبير بن نفيل» قال: كنت فى حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ وإنى لأصغر القوم. فتذاكروا بالأمر بالمعروف. والنهى عن المنكر. فقلت أنا: أليس الله يقول فى كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟

فأقبلوا على بلسان واحد وقالوا: تنزع آية من القرآن لا تعرفها. ولا تدرى ما تأويلها؟!

حتى تمنيت أنى لم أكن تكلمت وأقبلوا يتحدثون فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حدث السن. وإنك نزعت آية ولا تدرى ماهى؟ وعسى أن تدرك ذلك الزمان: إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا، وإعجاب كل ذى رأى برأيه.. فعليك بنفسك لا يضرك من ضل إذا هتديت[٢].

ماذا سمع جبير هنا؟ وبماذا حكم؟ وماهو الدرس الذى تلقاه من الصحابة؟ وعن أى شىء يسفر هذا الحوار؟

لقد سمع «جبير» الصحابة يتذاكرون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأهميته الواقفة بكل مسلم على ثغر من ثغور الإسلام حتى لا يؤتى من قبله. فتسرع «جبير» مستشهدا بالآية الكريمة على صحة ظنه الذاهب إلى براءة المسلم من التقصير فى البلاغ ما دام قد كمل نفسه بطاعة الله تعالى.. وعندئذ فلا عليه من

---

(١) المائدة: ١٠٥.

(٢) أدرجت هذه الفكرة فى كتابنا نحو أسلوب أمثل، وأعيد نشرها هنا لزيادات طرأت عليها.

ضلال الآخرين . بعد ما خرج من العهدة.

وأقبل عليه الصحابة عاتبين مجمعين على خطئه، حيث انتزع آية من سياقها، فجانبه التوفيق فى تفسيرها. ثم واصلوا الحديث متجاوزين وجهة نظره. فلما فرغوا من الحديث لقنوه الدرس المفيد: إنك مازلت فى أول الطريق.. لم تتضح لك زوايا القضية.. فكانت نظرتك جزئية متسرعة. وغدا.. وعندما تتسع تجربتك.. وترى من محدثات الأمور ماترى ستعرف أن فرار المسلم من الميدان لم يحن وقته بعد. وإنما عليه أن يبقى على الساحة فارسها المغوار. الذى لا يشق له غبار.. وإذا جاز له أن ينسحب أحياناً.. فهو الانسحاب المؤقت.. عندما تنحسر الحكمة. ويتوارى العدل وتتحكم فى الحياة قيم الشر.. وعندئذ فقط يجوز للمسلم أن يأوى إلى بيته فرارا بعقيدته.. ولكن إلى حين.

دروس من الموقف:

وقبل أن نوازن بين الفهمين مرجحين رأى الصحابة رضوان الله عليهم.. نلفت النظر إلى بعض الدروس فى هذا الموقف الكاشف عن طبيعة الخلاف بين الأجيال.. وعلى أية كيفية كانت المحاورة.. وكانت المدارسة.

أ ـ لقد اتسعت مجالس الصحابة للصبيان تربية لهم وإعدادا.

ب ـ كان الصبيان حينئذ أهلا لهذا التكريم بما حفظوا من كتاب الله تعالى.

ثم بالاستشهاد بآياته تحت إشراف كبار الصحابة. وإن جانبهم التوفيق أحيانا.

جـ ـ ظهرت ثمرة هذه التربية بهذا اللون من الشجاعة الأدبية التى حملت «جبيرا» على أن يواجه برأيه كبار الشيوخ.

د ـ ثم ماكان من حيائه البالغ وندمه العميق على ما بدر منه بعد ما تبين له الحق.

هـ ـ توجيه الصحابة للصبى «جبير» بأن للقرآن حُرمة تمنع من الجرأة إلا بسلاحها من العلم والفقه.

و ـ لم يتهموه فى مستوى ذكائه. وإنما رجعوا باللوم إلى صغر سنه.. وقلة تجربته.

ز ـ بينوا له فى النهاية أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب. . إلا فى حالة واحدة يكفى عندها أن يكمل الإنسان نفسه ولا عليه من ضلال غيره.

وذلك عند غلبة الشح والهوى. . وتمكن خلق الغرور من قلوب الناس.

لم يكن جبير وحده:

ويبدو أن جبيرا ـ رضى الله عنه ـ لم يكن وحده فى هذا الفهم بل كان له رفاق على الطريق ونستأنس بما يلى:

١ ـ كان هناك جمهور من الصحابة يفهمون الآية كما فهمها «جبير» ـ رضى الله عنه ـ يشير إلى ذلك نداء أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ لهؤلاء مصححا لهم هذا التصور وذلك قوله: «إنكم تقرأون هذه الآية. وتتأولونها على غير تأويلها».

ثم قال بعد أن نبههم إلى خطئهم: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الناس إذا رأوا الظالم، ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»** [(١)].

٢ ـ روى أبو داود وابن ماجة والترمذى عن أبى ثعلبة الخشنى أنه قيل له: كيف تقول فى الآية: **﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾**. فقال: أما والله لقد سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: **«بل ائتمروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك نفسك»**.

وإذن فقد كان هناك أناس تلقوا الآية الكريمة كما تلقاها «جبير بن نفيل» وحسم ﷺ النزاع مؤكدا أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. . . دائما.

من آراء المفسرين:

ذهب بعض المفسرين إلى تأويل الآية على نحو ما ذهب إليه جبير بن نفيل: جاء فى تفسير ابن كثير: «من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس. سواء أكان قريبا منه أو بعيدا.

---

(١) رواه أبو داود والترمذى .

قال العوفى عن ابن عباس عند تفسير هذه الآية الكريمة: «يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعنى فيما أمرته به من الحلال. أو نهيته من الحرام. فلا يضره من ضل بعده. إذا عمل بما أمرته به».

وقد أشار القرطبى إلى هذا المعنى بقوله: «وظاهر هذه الآية الكريمة يدل على أن الأمر بالمعروف. والنهى عن المنكر. ليس القيام به بواجب إذا استقام الإنسان وأنه لا يؤاخذه أحد بذنب غيره».

الرأى الأصح:

لكن القرطبى قد انتهى فى تفسيره إلى ضعف ما سبق إن أشار إليه مرجحا عموم المسؤولية وذلك قوله: «.. وأنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره لولا ما ورد من تفسيرها فى السنة. وأقاويل الصحابة والتابعين».

ولكنه يشترط لوجوب النصيحة أمرين:

١ ـ رجاء القبول.

٢ ـ ألا يترتب عليها ضرر بالغ أو فتنة وذلك قوله: «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر متعين متى رجى القبول. أو رجى رد الظالم ولو بعنف. ما لم يخف الأمر ضررا يلحقه فى خاصته. أو فتنة يدخلها على المسلمين: إما بشق عصا. أو بضرر يلحق طائفة من الناس، فإن خيف هذا فـ «عليكم أنفسكم» محكم واجب أن يوقف عنده».

جاء فى تفسير أضواء البيان للآية الكريمة: «قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ولكن نفس الآية فيها إشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده فلم يقبل منه المأمور وذلك فى قوله: ﴿ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. لأن من ترك الأمر بالمعروف لم يهتد، وممن قال بهذا: حذيفة وسعيد ابن المسيب. كما نقله عنهما الألوسى فى تفسيره. وابن جُرير ونقله القرطبى عن سعيد بن المسيب. فمن العلماء من قال: «إذا اهتديتم» أى أمرتم فلم يسمع منكم. ومنهم من قال: يدخل الأمر بالمعروف فى المراد بالاهتداء فى الآية. وهذا ظاهر جدا. ولا ينبغى العدول عنه لمنصف».

ويريد الشيخ أن يقول: إن ضلال العصاة لا يضرك أيها المسلم.. إذا اهتديت.. ولن تكون مهتديا إلا إذا أمرته.. وبإلحاح.. ثم لم يستجب لك.

أما إذا لم تأمره ابتداء.. فأنت لم تحصل فى نفسك معنى الاهتداء. وعليك أن تستكمل عناصر الهداية فيك.. بمحاولة تكميل الآخرين. ليكونوا معك على الطريق المستقيم.

ثم يقول: «ومما يدل على أن تارك الأمر بالمعروف غير مهتد: أن الله تعالى أقسم أنه فى خسر، فى قوله تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾. [العصر ١ ـ ٣].

فالحق وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وبعد أداء الواجب لا يضر الآمر ضلال من ضل... وقد دلت الآيات كقوله تعالى: **﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾**.

والأحاديث على أن الناس إن لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر عمهم الله بعذاب من عنده.

روى البخارى ومسلم عن أم المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ: أن النبى ﷺ دخل عليها فزعا مرعوبا يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج مأجوج. مثل هذه**» وحلق بأصبعيه. بالإبهام والتى تليها. فقلت: يارسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم. إذا كثر الخبث**».

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول مادخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: ياهذا اتق الله. ودع ما تصنع. فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله. فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض قال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا**

كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ .

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾». المائدة ٧٨ ـ ٨٠.

ثم قال: «كلا. والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم. ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا. أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم ليلعنكم كما لعنهم» رواه أبو داود والترمذى وقال: «حسن»، وهذا لفظ أبى داود.

آية بين فهمين

[٢]

وضحنا آنفا تلك الآراء بالنسبة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[١] وبينا أنه ينبغى لكل ذى عقل أريب أن يرتع فى رياض القرآن الكريم ويقتطف من قطوفه الدانية ما تزكو به نفسه وترتفع به همته، وترتقى فى مسالك الدارجين إلى الله خطواته.

لذا كان فهم القرآن دين كل تقى، ومرمى كل متدبر ذكى، ولا ينقصه ما يداخله من فهم لما قرأ من آيات واستشف لما يتلو من معان بحيث يعرض ما فهمه على من هم أفقه واعلم بذلك الأمر منه، ليجدد الفهم أو يزكيه مستنا بسنة المصطفى ﷺ من ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وفى هذا المقال نستكمل جوانب هذا الموضوع.

لماذا تعم الفتنة:

[فى بعض أطوار انحدار الأمم تستحكم فى الأمة عوامل البغى والفحشاء، وعدم المبالاة، والاجتراء على ملابسة الباطل وممارسة الخطا بصورة لا يرجى معها صلاح حيث يؤدى بها ذلك كله إلى العذاب المحقق.. الاستعمار أو القحط، أو الجوائح الطبيعية، ويكون فيهم من أهل الصلاح والحق من برئ من الإثم.. فإذا نزل العذاب بمثل تلك الأمة الفاسدة لا يشفع فى دفع العذاب عنها أولئك الصالحون؛ لأن ارتباط عذاب الأمم بجرائم الأكثرية من بنيها سنة كونية حتمية لكن إذا بعثوا من قبورهم يوم القيامة للجزاء عاملهم الله على حسب نياتهم من إرادة الطاعة والصلاح، والمقصود من الحديث قتل عادة السلبية فى الأمم وتعليم السلبيين الذين يعتزلون مقاتلة الفساد بأن سلبيتهم لا تنجيهم ساعة القصاص فى الدنيا وإن كانت نيتهم الصالحة وعدم إقرارهم للفساد فى أنفسهم يحسب لهم يوم القيامة][٢].

---

(١) المائدة: ١٠٥. (٢) من مقال للدكتور محمد سعاد جلال.

لقد كان هناك فى الجاهلية رأى عام يتعقب المسىء ويعزله عن المجتمع. . أفلا يكون المجتمع الإسلامى أولى بهذا التجريم؟

ففى سوق عكاظ: كان الخطيب يخطب. ويدين الغادر والمعتدى ويقول: ألا إن فلان ابن فلان قد غدر. فاعرفوا وجهه ولا تشاوروه. أو تجالسوه ولا تسمعوا منه قولا. وكانت القبائل تخلع الفاجر من أبنائها. فتعلن أنها خلعته. ولا تحتمل له جريرة. ولا تطالب بدمه. إذا أصيب فى جرم.

فانظر كيف لاحق المجتمع بالعقاب كل من خرج عن الصف حتى أنه صادر أفكاره التى يجب ألا تصل إلى الناس.

من آراء المحدثين:

يقول المرحوم الأستاذ البهى الخولى متأثراً بما ذكره القرطبى والذى أشرنا إليه آنفا: قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾**.

[فإن أكثر الناس لا يرى فيها إلا أن يشتغل كل إنسان بنفسه. ولا شأن له بضلال غيره، فإن هذا الضلال لا يضر إلا صاحبه. . . وهذا التفسير من وسوسة الشيطان، وتقاصر الهمم كما قلنا: فإنه يناقض ما ورد فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مناقضة صريحة. . . والقرآن لا يناقض بعضه بعضا قال تعالى: **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾**.

وقولهم: إن الضلال لا يضر إلا صاحبه يناقض قوله تعالى: **﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾**.

ويمكن فى هذا المقام إيراد الأحاديث التى تهدم هذا التفسير. ولكننا نكتفى بإيراد هذه المناقضة، وبتفسير الآية تفسيرا يستخرج المعنى من لفظها بدون تعسف. فالآية الكريمة من الوجهة النحوية مؤلفة من الأمر وجوابه: فالأمر هنا هو: عليكم أنفسكم ـ بالإصلاح:

والجواب المترتب على هذا الأمر هو: لا يضركم من ضل: والمقدمة أن نصلح

أنفسنا بمثل ما فى وسعنا من أسباب الإصلاح، والنتيجة أن هذا الإصلاح حصن لنا من كيد الأعداء. فلا يستطيع هؤلاء الضالون أن يلحقوا بنا ضررا ما].

وإذن، فنحن أمام أسلوب من أساليب الدعوة صارم، يرفض السلبية المستوحاة من التفسير الآخر، والمنقوض بالسنة المطهرة، كما جاء على لسان الصديق - رضى الله عنه. وبمنطوق اللغة التى تكلف المجتمع أن يكون على مستوى رسالته ملازمة لإصلاح النفس، على نحو يحبط كيد الأعداء، ويرد سهامهم إلى نحورهم. وليس فى الآية الكريمة ما يحملنا على الفرار من الساحة، اتكالا على أننا حققنا الهدى لأنفسنا، وهو ما يوحى به ظاهر اللفظ، بادى الرأى. إن حق المسرفين فى النصيحة لا يسقط وإن بلغوا القمة فأسرفوا وأعرضوا، وذلك قوله عز وجل: ﴿**أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ . وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾[الزخرف: ٥-٧].

إن الأنبياء المبشرين المنذرين على مدار التاريخ وجدوا من الناس عنتا وكان الظن بالناس أن يستجيبوا لما يحييهم من عقيدة التوحيد، وما قام عليها من نظام. لكنهم أعرضوا، بل ساروا فى العناد إلى منتهاه، فاتخذوا الدعاة إلى الله سخريا، فكانوا منهم يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون. وكان ذلك ظاهرة اجتماعية بارزة واكبت الحياة: ومع ذلك كانوا ينهونهم.

حدود الأمر والنهى:

لا ينتهى دورك حين تستكمل فى نفسك عناصر الهداية.. إنك حينئذ «مهتد» مع إيقاف التنفيذ إذا صح التعبير! فإذا تقدمت على الطريق خطوة أخرى فحققت الهداية لغيرك.. فأنت إذا من المهتدين. لكنك غير مطالب بجعل غيرك مهتديا بالفعل.. بل قصارى جهدك أن تجعله على الأقل مهتديا «بالقوة» أى صالحا للاهتداء.. آخذا سبيله إليه بعد أن تكون قد نجحت فى حمله على استدبار المعصية.. واستقبال أفق الطاعة. ولن تستطيع ذلك بالكلام وحده.. ومهما بلغت الموعظة كمالها.. فلابد من القدوة الحسنة.

إن كثيرا من الشباب يصرخون آسفين محتجين على أناس لم يسمعوا كلامهم.. وما أكثر ما يخوضون فى قضايا الحكم ومواصفات الحاكم.. غافلين

عن المعاصى التى يعج بها الواقع الماثل والتى تدعوهم إلى ملاحقتها بالعلاج الحاسم. وفى بعض الندوات حاصر الشباب عالما فاضلا بعشرات الأسئلة حول ما يجب عمله مع حاكم لا يطبق شرع الله. وكثيرة هى الليالى التى سهروها بحثا عن النقول الغربية فى عيون التراث لمجرد أن ينتصروا على العالم فى ميدان الجدل. . . ولقد انتصروا ـ أو زعموا ـ فعلا. . وهللوا وكبروا . . ثم عادوا إلى بيوتهم وعلى رؤوسهم أكاليل الزهور من أجل نصر لم يكلفهم إلا عقاقير يجأرون بها! وليتهم أنفقوا هذه الساعات فى عمل صالح يمارسونه على أرض الواقع. . ويراهم الناس فيتسجون على منوالهم. . ليتهم تفرغوا لهداية «المحكوم» قبل أن يتفرغوا للحاكم!. . . ولعمرى إنها لأفضل طرائق الدعوة على الإطلاق. . وأسهلها أيضا: إن هذا الحاكم لم يمنع مسلما واحدا من أن يكون فى قمة الفضيلة.

إن مساعدتك للضعيف. . تعليمك الأخرق. . الصدقة على الفقير. . وفاءك بالعهد. . صدقك فى الحديث. . حرصك على الصلاة فى جماعة. . صلتك الرحم.

كل أولئك وغيره من ألوان العمل الصالح. . أنت قادر عليه. . وبه وحده تحقق إسلامك على الطبيعة وتأخذ بيد غيرك إلى مثله.

فليتك تخطو هذه الخطوة. . تاركا مسائل الحكم لأربابها. . جاعلا همك الأكبر أن تكون على الأرض قرآنا يمشى. . ولن يمنعك حاكم من ذلك. . وأخشى أن أقول إن بعض شبابنا ترك دوره الأساسى فى الدعوة ليدخل فى حال غيره. . وضاعت ساعات عمره فى قيل وقال. لا يغنى عن الحق شيئا.

[نبنى كما كانت أوائلنا تبنى]:

بعد رحلة إلى الجبهة فى السويس ـ أيام حرب الاستنزاف عدنا إلى القاهرة. ومثلنا بين يدى أستاذنا المرحوم محمد أحمد الغمراوى.

وقال زميلى فى الرحلة للدكتور الغمراوى مزهوا: لقد دخلنا الخنادق ووعظنا الجنود والضباط. . وكانت إسرائيل منا على مرمى حجر!

ورد الدكتور الغمراوى بهدوء: كم يساوى ما فعلتم؟!

لقد كنت مسلما. يعظ المسلمين.. إذن فما أسهل المهمة! وخير لك أن تهدى كافرا إلى الإسلام؟!

وسكتنا جميعا.. أمام دقة الجواب وعمق دلالته.. وأدركنا كيف كانت المهمة سهلة حين لم تكن إلا خطبا ومواعظ فى ظروف غير عادية.. ونسينا معنى الدعوة الحقيقى.. ومسؤولياتنا الحقيقية المتمثلة فى إخراج واحد من الظلمات إلى النور.. وما أصعب المهمة حينئذ!..

وهو مثل نقدمه للشباب اليوم.. نعززه بثان يحيى صورة من جهاد أمتنا فى سبيل نشر الدعوة فى أقسى الظروف.. إلى جانب صورة أخرى للأجانب وكيف يرصدون وجودهم كله لأديانهم. وبلا مقابل ... لعل فى ذلك عبرة لمن أراد أن يذكر:

يقول المرحوم الدكتور محمود حب الله: «لاشك أن المظاهر المادية. والعمل بما توحى به العقيدة من أكبر العوامل التى تساعد على بقائها وعلى نشرها».

وكلما كانت المظاهر متكررة بتكرر الأوقات والأيام كان ذلك أدعى إلى بقاء العقيدة ودوامها: فالصلاة «مثلا» وهى أحد المظاهر الفعلية للإيمان بالله، لا تنحصر غايتها فى تربية ملكة الخضوع، وإيجاد خلق التدين عند الإنسان فحسب.. ولكنها تهدف وراء ذلك إلى تثبيت العقيدة فى نفوس المعتقدين وإلى ضرب الأمثال لهؤلاء الذين لا يعتقدون رجاء أن تلين قلوبهم لذكر الله. وتدخلهم غريزة حب الاستطلاع إلى البحث والنظر. ويحدثنا المبشرون عن مدى تأثير المظاهر المادية للعقائد فى نفوس البدائيين من غير المعتقدين وتحويلهم إلى الاعتقاد. وذلك أمر طبيعى يجد ما يشهد له فى علم النفس:

فالإنسان يميل بطبيعته ـ إلى الأديان ذات الشعائر منه إلى غيرها؛ لأن الأولى ترضى كل قواه النفسية والعملية. وأما حياة التدبر والتأمل وحدها فلا تشبع الرغبات الإنسانية.

ولقد نجح العرب نجاحا كبيرا فى نشر الإسلام فى كثير من أنحاء أفريقيا ولا يزالون يسجلون نجاحا كبيرا. من غير أن ينطقوا بكلمة. أو ينشروا جدلا إلا حين

يسألون. وكل ما هناك أنهم يقيمون شعائرهم الدينية جهارا فيتطهرون ويصلون فى أى مكان يوجدون فيه عندما يحل وقت الصلاة ويتصدقون، ويطعمون الجائع المحروم، ويحترمون الجميع من غير أن ينتظروا على ذلك جزاء أو شكورا. فينظر إليهم الأفريقيون كأنهم من نوع إنسانى أرقى روحا. وأقرب إلى الإنسانية من كل الأنواع الأخرى التى اتصلوا بها من الناس. فيؤمنون بما يؤمنون به.

فالمظاهر المادية والعمل. والمثال. والقدوة الحسنة. والتوكيد والتكرار ومافى العقيدة من منطق وحكمة ومقدار ما يدعمها من منطق وحكمة ومقدرة قوة المدافعين عنها بالحكمة ومقدار اتصالها بالحياة العملية للمؤمنين بها ومقدار تنظيمها لهذه الحياة ولجوانبها المختلفة ومقدار إشباعها لحاجتهم النفسية والعقلية ومقدار انسجامها مع اتجاهاتهم الفطرية كل ذلك.. من وسائل نشر العقيدة وتقويتها ومن ضرورات الاحتفاظ بها أمدأ طويلا [1].

وفى الوقت الذى يدور فيه بعض شبابنا حول نفسه.. يمارس الدعوة على طريقة: «محلك سر»!. يمارسها تجمعا فى مسجد.. أو نشيدا فى حفل.. وعلى بعد أمتار من بيته الآمن ومخدعه الوثير. فى هذا الوقت نطالع نماذج لشباب آخر ترك أهله ووطنه وراح يضرب فى الأرض داعيا إلى دينه أو مذهبه مضحيا حتى بحياته.

جاء فى دراسة عن أعمال المبشرين للدكتور عبد الودود شلبى ما يلى:

«وأذكر أننى ترددت كثيرا جدا على مركز من مراكز أعداد المبشرين فى مدريد، وفى فناء المبنى الواسع وضعوا لوحة كبيرة كتب عليها: أيها المبشر الشاب، نحن لا نعدك بوظيفة أو عمل أو سكن أو فراش وثير.. إننا ننذرك بأنك لن تجد فى عملك التبشيرى إلا التعب والمرض، كل ما نقدمه إليك هو العلم والخبز وفراش خشن فى كوخ فقير. أجرك ستجده عند الله. إذا أدركك الموت وأنت فى طريق المسيح كنت من السماء.. ورغم ذلك فقد كنت أجد مئات الشباب يدرسون فى ذلك المركز، ورأيت مرة فى ميناء مالقة فى أسبانيا سفينة كاملة خصصت للمبشرين وعلى هذه السفينة قيل لى: أن هناك ثلاثة آلاف مبشر ومبشرة، وكلهم ذاهبون إلى أفريقيا وهذه السفينة ستنزل فى كل ميناء أفريقى بضع

(١) الحياة الوجدانية ١٧٥ وما بعدها للدكتور حب الله ج١ - دار إحياء الكتب العربية.

مئات من رجالها ـ والكثيرون منهم يتسللون داخل البلاد دون إذن السلطات، لأن السلطات بروتستانية فى بعض البلاد، وهى لا تسمح بدخول المبشرين الكاثوليك.. ولكنهم يدخلون ويوغلون فى الغابات، والعشرات منهم يقتلون دون أن يطالب بدمهم أحد لأنهم متسللون؛ والكنيسة الكاثوليكية تحتج على قتلهم، ولكنها ترسل فى الوقت نفسه بدل المفقود الواحد اثنين.. هذا ما يقدمه كل مبشر معلما كان أو طبيبا أو مهندسا أو غيره..

وفى الحقيقة نحن أحق من غيرنا بهذا الإحساس وأولى بهذه التضحية.. إلا أن ما يقع ـ للأسف الشديد ـ هو غير ذلك، إذ لا يزال المعلم المسلم فى بلادنا يرفض الالتحاق بمركزه فى الريف حيث المكان الخصب للدعوة، ولا يزال يبحث عن المسكن الأنيق والفراش الوثير.. إلخ.

لقد تأكد لأعداء الإسلام منذ زمن بعيد أن ما يقرؤه الطفل من قصص ومسرحيات وشعر، لا يقل خطرا عما تقوم به الأسرة وعما يقوم به المعلم من غرس للقيم وتأثير فى السلوك يبقى معه ـ أى الطفل ـ حتى آخر مرحلة من عمره.. لذلك لم يتوان هؤلاء الأعداء من إغراق أسواقنا الثقافية بالساقط من الكتب والمجلات المعدة خصيصا للأطفال، تستهدف صناعة هدف لهم غير هدف أمتهم وعقيدتهم، وذلك عن طريق نشر الأسطورة والخرافة والقصص الخيالية وغيرها التى تشكل عندهم ـ الأطفال ـ بعد ذلك خوفا وإعجابا بالبطولة الغربية وتنشئ فى أعماقهم حالة تبعية تحول بينهم وبين فهم مقدرات الأمور حيث أخطار الغزو الغربى الذى يجب أن يعدوا له منذ نعومة أظافرهم لمواجهته ومقاومته.. ولقد وظفت لذلك أسماء لكتاب مشهورين على الساحة العربية.. بل لقد أصبحت قصة الأطفال من الميادين التى يراهن عليها الشيوعيون فى أكثر من قطر عربى لنشر مبادئهم الهدامة بين الأطفال.

لذلك وجب على العاملين للإسلام وهم يعدون العدة لدك حصون الكفر والإلحاد والتبعية للأجنبى، العمل على إغراق السوق الثقافية الخاصة بالأطفال من كتب ومجلات خاصة ـ بما يسهم فى تحقيق هذا الهدف العظيم[1].

---

(١) من بحث فى مجلة الوعى الإسلامى ـ صفر ١٤٠٨.

المبادئ.. والمنافع

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾[1].

عندما تبذل روحك دفاعا عن دينك أو عرضك.. فمعنى ذلك أن هناك شيئا أغلى من الحياة هو: مثلك العليا.. وشرفك الرفيع.. الذى لا يسلم. حتى يراق على جوانبه الدم.

ومن هنا يتقبلك الحق تبارك وتعالى شهيدا. بما منحت الحياة بعدك من عناصر البقاء.

وتلك الحقيقة مقررة فى منطق الإسلام ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ ويقف الجهل حائلا بين الإنسان وبين فهم هذا السر. والعمل طبقا له. فهو عبد للماديات.

فالمال فى جيبه يستطيع أن يراه ويحسبه ويكتبه فى سجلات ثروته. فيشعر أنه يزداد ويكثر. أما المال الذى يذهب منه. فهو لا يستطيع أن يرى أين يكثر وكيف يكثر. ومقدار الزيادة التى يحققها. ومتى تعود منافعه وفوائده عليه. فهو يفهم فقط أن المال قد خرج من جيبه.. خرج ولن يعود أبدا. ولم يستطع الإنسان حتى اليوم بعقله أو بطاقته أن يفتح قفل هذا الجهل.

والمنافقون هم الفائزون بقصب السبق فى هذا المضمار.. حين يحسبون الحياة فقط لقمة تسد الجوعة.. أو خرقة تستر العورة. فإذا ما حرم الإنسان ذلك استسلم وخارت قواه.

وبهذا المنطق الساذج يتعاملون مع المؤمنين ناسين أو متناسين أن وراء المال والجاه كنزا من الأخلاق.. هو سر وجود المسلم فى هذه الحياة.

---

(١) المنافقون : ٧.

تحكى الآية الكريمة عن المنافقين قولهم بشأن المؤمنين: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾.

اقطعوا عنهم «المعونات الاقتصادية».. افرضوا عليهم سياسة التجويع... فإن فعلتم.. انفض السامر من حول رسول الله ﷺ.. وبقى وحده فى مهب الرياح!

ويمكن لهذا التهديد أن يؤثر لو كانت الحياة غذاء وكساء. أما وفى الحياة من حقائق الروح.. وبرد اليقين.. ما يزرى بهذه القشرة الظاهرة.. فلا!

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه. فما فاته فيها فليس بضائر.

ثم.. إن هذا المنطق الساذج تدخل فى أرزاق لا يملكونها: فلله سبحانه وحده خزائن السموات والأرض. فهو وحده الذى يملك حق المنع.. وحق العطاء.

يعطى من سكينة النفس لأصحاب المبادئ، ما لو علمه المنافقون.. لحاربوهم عليه بالسيوف! ويمنع عن المنافقين هذا المدد من رزق الباطن.. فإذا هم ـ على غناهم ـ تعساء.

ومن ثم..تجىء حساباتهم خاطئة عندما يحسبون قطع المعونة سبيلا إلى هزيمة المسلمين.. بينما أصحاب المبادئ هناك.. فى جنات ونعيم.. سعداء بما رزقوا من قناعة ورضا.. وبما قدموا للحياة من منافع.. وما غرسوا من قيم.. هى خير مما يجمعون.

أطباء ... وصيادلة

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

ليس من مصلحة الدولة.. ولا من مصلحة الدعوة أن يتحول الشعب كله إلى دعاة!

ولكن الحكمة تقضى أن يكون إلى جانب الجيش المستعد.. إرهابا لعدو الله.. وعلى خط مواز ـ طائفة يتم انتخابهم من كل فرقة.. من كل التخصصات.. وعلى مستوى الأمة كلها.. لتكون أصدق تعبيرا عن مبادئها.. وأقدر على مواجهة الفتن ما ظهر منها وما بطن.

أما أن يُستصفى الممتازون للدنيا.. وتبقى النخالة للدين.. فذلك هو البلاء المبين!

وتبدو مسؤولية الدعاة المنتخبين هنا عسيرة منذ اللحظة الأولى:

فإيثار الفعل «نفر» على «خرج» مثلا.. يلقى بالعبء الثقيل على أكتاف الدعاة الذين لا تنحصر مهمتهم فى مجرد الكلام.. وإنما عليهم استشعار أنهم نافرون فى معركة لها من الأهمية ما للمعركة العسكرية إن لم تكن أخطر منها أثرا.

وإذا لم تنحصر مهمتهم فى ملء الأسماع بالكلام.. وكانت بالدرجة الأولى تربية الأمة وإعدادها لتمضى على سواء الصراط.. فلابد من استيعابهم لحقائق الإسلام عن طريق الإلمام بالحكم.. والوعى بالحكمة الخفية.. ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

ولاتكفى الشهادات فى الوصول بالناس إلى الحق. وأهم منها: بصيرة نافذة إلى أعماق الإنسان.. وعلل المجتمعات.. ليعالجوا بحقائق الدين آفات الإنسانية.

---

(١) التوبة: ١٢٢.

ولابد من توفر قدر مناسب من الشجاعة الأدبية يحميهم من التودد ومجاملة المنحرفين على حساب الحق.. وإن كانوا قومهم.

إنهم مستعدون لمواجهة أقوامهم بعيوبهم: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾

ليؤكدوا بهذه المكاشفة قدرتهم على البلاغ أولا.. وليؤكدوا لقومهم ثانيا أنه لا مجاملة فى الحق.. الذى هو دائما فوق لحمة النسب.. ومن هنا يكسبون احترام الجمهور.. بل إنهم ليفرضون احترامهم عليه.. لتكسب الدعوة من وراء ذلك قوة.. فى شخص أفراد لا يأكلون بدينهم.. إنهم يعيشون له.. ولا يعيشون به!

وفرصة النجاح مواتية فى صحبة دعاة من هذا الطراز، ولعل قومهم: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ فيحملهم الحذر على الخوف.. ثم على التوبة النصوح.

ولا يمكن للدعوة أن تصل إلى هذا المستوى.. برجال يمسكون الماء.. ولا ينبتون الكلأ!.. برجال يملكون مخزونا من أحكام الشرع.. يمضغونها مضغا.. ثم لا يلمون بحكمة التشريع.. رجال: يعرفون نعمة الله.. ثم لا يستثمرونها!

وإذا احتاجت الدعوة إلى «صيادلة» يدخرون صنوف الدواء للطالبين.. فإنها أحوج إلى «أطباء» يأسون الجراح.. وتلك قمة النجاح.

حتى لا تكون التحية.. زهرة بلا رائحة!

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾(١).

كل شىء حتى إلقاء السلام ورده ـ مما نظنه أمراً عاديا ـ يصبح موضع مساءلة إذا ما قصرنا فيه! ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾

وربما كان المتلقى أكبر مسؤولية.. ومن ثم.. فالآية الكريمة تركز عليه؛ فإذا حييت بتحية .. فليكن ردك بأحسن منها.. أو على الأقل.. ردها كما أُلقيت إليك بلا نقصان..

ذلك .. بأن الذى ألقى إليك السلام. قد بدأ بالفضل.

ثم هو أعطاك من نفسه الأمان بسلام.. انبسطت به نفسك.. وزايلتك مشاعر خوف أراحك هو من مضاعفاته..

ولك أن تتصور شبحا فى الظلام يتحرك.. وبينما الفزع يحتويك.. إذا به.. أخوك.. يسلم عليك.. فيعطيك عهدا بالأمان.. ليتغير الموقف كله.. فإذا أنت ماض فى طريقك.. أو تزاول عملك أكثر اطمئنانا.. وأثبت جنانا.. وبالتالى أوفر نتاجا.. يعود على المجتمع بالخير.. فى نهاية المطاف.

ونلمح هنا بُعداً آخر من أبعاد المنهج الإسلامى.. الذى يرضى منك برد العدوان.. عدلا.. قبل أن يأمرك بالإحسان.. فضلا. وذلك فى مثل قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها. فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

فمن عفا وأصلح.. وذلك ساعة تعرضه للأذى.. فأجره على الله سبحانه.. ولكن الحق تعالى ـ هنا ـ يأمرك بالفضل.. قبل أن يطالبك بالعدل؛ لأنك هنا تعيش لحظة سلام تنبسط فيها نفسك.. بجميل قدُم إليك.. وتحية ألقيت عليك. فأنت إذن أكثر قبولا واستعدادا للفضل.. وتقديم الأحسن.. فى نشوة نفسك

---

(١) النساء ٨٦.

بمشاعر الأمان. أما لحظة وقوع الأذى عليك.. فإن العدل.. أن تكلَّف بالعدل.. تقديرا لموقفك الصعب!

وإذا كان هذا واجب المتلقى.. فإن الذى ألقى السلام ليأخذ نصيبه من المسؤولية فى صنع هذه اللحظات البهيجة:

وأقصد بالتنبيه: بعض الذين يلقون إليك السلام بلغة الأرقام! والمكاييل والموازين؟

إنه يحسب ثواب التحية التى يردها على قدر مانطق به من ألفاظها الواردة فى السنة المطهرة.

فهو يلقيها: صارم الملامح.. مقطب الجبين.. شاخص البُصر.. وكأنما هو بائع يعطيك السلعة.. ثم يطالبك بالثمن! بينما هو فى الواقع لم يمنحك روح السلام.. وإن كان قد رسم هيكله العظمى بألفاظ تفوه بها!

أين تهلل الوجه.. وطلاقة التعبير.. بل أين الابتسامة الوضيئة التى تجعل للتحية قيمة.. بل إنها لتكفى أحيانا.. ولو لم تنطق بكلمة واحدة.

إن تحية خالية من هذه الروح، زهرة بلا رائحة.. صلاة .. فى غير جماعة.. إنها كبحور «علم العروض»: بحر.. بلا ماء!!

التثبت قبل الحكم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾(١).

إذا كنا نقول فى المجال العسكرى لكى يحقق الصاروخ هدفه؛ لابد أن ينطلق من قاعدة سليمة. وإلا عاد فدمرها تدميرا.. فإنا نقول فى المجال الإنسانى، لكى تبلغ الكلمة هدفها.. لابد أن يفيض بها قلب سليم.. وثيق الصلة بربه.

وإلا فلو صدرت الكلمة من قلب خرب.. من قاعدة رخوة.. فإنها سترتد نقمة على مجتمع غافل.. ترك فى صفه ثلمة سمحت بهذا الدمار.. الذى يفوق فى آثاره ما يفعله الصاروخ الطائش!

إن القذيفة قد تصيب فردا بعينه. فترديه قتيلا. ولكن الكلمة الخبيثه يتطاير شررها. لتصيب «قوما» لتصيب مجتمعا بأسره. ولا يخفف من هذا الأثر أن كانت «بجهالة» لأن سنن الحق تعالى.. لا تحابى المغفلين.. وإن كانوا مؤمنين.

وجدير بالمؤمنين ـ كما تشير الآية الكريمة ـ أن يكونوا أبصر بالعواقب. فلا يتقبلوا كلام الناس دون تمحيص.. وألا يسمحوا فى البيئة الطهور أن تدنسها الأحقاد..

إن الحق سبحانه وتعالى يستدعيهم بوصف الإيمان أن يفوا بحق الإيمان عليهم.. لقد مُنحوا بالإيمان عنصر الثبات.. والأناه.. وإذا فرض عليهم الإيمان أن يقولوا «التى هى أحسن» فإنه يفرض عليهم أيضا أن يستمعوا بالتى هى أحسن..

ومن حسن الاستماع ألا يجاملوا الفاسق وإن كان ذا مال وبنين.. على حساب الآخرين. ولو حاول أن يستغل إمكاناته فيجعل الخبر العادى «نبأ» يستحق التعليق أو التصديق!

---

(١) الحجرات: ٦.

وهذا الاحتياط فى تقبل الأخبار ينجيكم من ندم تستقبلون به يوما كئيبا لا يغسله اعتذار فات أوانه.

إن هذا الذى اتهم فى سمعته له عينان.. وأذنان.. وشفتان.. وسوف يتكلم بالحق وبالباطل.. وسوف يهاجم المتكلمين.. والساكتين معا.. وبنفس الحماس! وبذلك تضعف الثقة الجامعة المانعة.

إن الإيمان ليمنح أتباعه حساً بصيرا يدركون به طبيعة ذلك الفاسق.. ومآربه.. «الفاسق» الذى فسق عن أمر ربه.. فخرج به فسوقه عن الجماعة معزولا.. فحاول أن يضرب ضربته من «الخارج» بعد أن عجز عن تفريقها من الداخل. حين «يجىء» من بعيد.. بعد أن اكتنز جسمه كالسلحفاه. ليهدم بالكلمة الخبيثة هذا الصرح القائم.

وعلى المجتمع المتماسك.. باسم الإيمان أن يتلافى باليقظة.. ضربة الكلمة الخادعة.. كما يتلافى الضربة الصادعة!

المعادلة .. الصعبة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾(1).

لأن الإيمان تصديق يبلغ حد اليقين.. فلابد أن يشع قبس منه على صلة المسلم بأخوته المسلمين.. فلا يؤاخذهم بالظن والتخمين.

ولأن التجربة الشخصية تكشف أحيانا عن خطأ فى التقديرات والظنون.. فإن الاحتياط يفرض على المؤمن - بحكم إيمانه - تجنب الكثير منها.. حماية لغيره من أحكام لا يدرى أين الخطأ فيها.. وأين الصواب.. وإذا كان الشاعر يقول:

من أجل عين ... ألف عين تكرم..

فإنا نقول: من أجل ظن واحد يضر صاحبك.. يترك ألف ظن ولو حملت دليل الرجحانَ.

على أن هذا التدبير يحمى المؤمن أيضا من ردود الفعل لدى ضحايا الظن الخاطئ. ذلك بأن للناس أعينا.. ولهم كذلك ألسنة.

والموقف الأمثل : أن يحمد المؤمن ربه الذى عافاه مما ابتلى به غيره.. ولئن حدث.. وانتهت إلى المؤمن بعض الشائعات بلا تكلف منه.. فعليه ألا يستثمرها مع غيره.. ممن يستضيفهم الشيطان على موائد من لحوم الآخرين. وأخُص بالحديث هنا.. لحظات الفراغ فى حياة أناس يسترخون فى الظل حول موقد «الشاى»!

لقد شربوا مع «الشاى» عصارة من دم أخ لهم فى الله... اغتابوه.. ثم مرغوا سمعته فى التراب.. بينما هو غائب.. لا يملك الدفاع عن نفسه!

وفى نفس الوقت ترى عجبا: ترامت إليهم صيحات النجدة.. تخيرة «بقرة» أخيهم هذا موضوع حديثهم.. ماذا فعلوا؟ طاروا إليه مسرعين.. قبل أن يفقد

---

(1) الحجرات: ١٢.

رأس ماله. طاروا.. بدافع من المغامرة.. وهى أمر محمود لدى الناس.. أو فعلوا ذلك دَيْنًا. يطوقون به عنق صاحبهم.. ليدفعه فى الوقت المناسب.. أو أنهم أرادوا مجرد الخروج من العهدة.. وتفادى لوم الناس لو أنهم تقاعسوا!

وقلت للجالسين المتآمرين.. الجالسين إلى جوار النخلة ـ وهى مثال المؤمن فى: خيريته.. وثباته.. وخضرته الدائمة.. قلت لهم: تنقذون «بقرته».. ثم تمزقون سمعته؟!!

إنها المعادلة الصعبة! اتقوا الله ياقوم.. اتقوه.. إن الله تواب رحيم.

من هنا.. تبدأ الحضارة

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[1].

عندما يطلق صبى ساقية للريح.. عبر طريق ممتد. ثم يتلوه آخر.. هكذا بلا غاية. فمن منهما السابق.. ومن اللاحق؟

لا سابق هنا - ولا لاحق!!

لأن التقدم إنما يكون: عندما يوجد هدف محدد.. يقترب منه واحد.. فنسميه متقدما.. ويتأخر ثان.. فنسميه متأخرا.

فإذا كان الأمر عبثا وبلا غاية.. فلا يعدو أن يكون حركة طائشة.. قد تخطف الأبصار.. لكنها بلا مضمون.

وهكذا كانت حضارة عاد قوم هود: لقد شيدت دورا وبنت قصورا.

ولا تنكر الآيات على القوم ذلك.. لأن عمارة الأرض بعض أهداف القرآن التى تحقق رفاهية الإنسان. لكنها تشدد النكير على نهضة عمرانية تنطلق بدوافع العبث أو الترف. والاستهتار.. على يد العابثين اللاهين عن الحياة الآخرة.. والمتشبثين بأحلام السيطرة والخلود. إنها صحوة.. ولكنها صحوة لموت! الموت المرصود لحركة تمضى.. بلا روح.. وبلا ضابط من تقوى الله سبحانه وتعالى. والالتزام بشرعه.

وإذا بقيت فى الجسم المنطلق بقية من عافية تمسك البنيان المترع.. فإن ذلك لن يدوم طويلا.

فقد أُتِى المجتمع من داخل النفس واستطاع العبث.. والاستهتار - وهو العملة الرديئة - أن يطرد العملة الجيدة: الفضيلة من القلوب. وبذلك فقدت نور البصيرة..

وكل خطوة تخطوها.. فإنها تحقق دائما عكس المطلوب!

---

(١) الشعراء: ١٢٨، ١٢٩.

وتلك سمة من سمات الحضارة الحديثة.. التى تمضى على نفس الطريق.. إلى ذات الغاية، إنها تتحرك .. لكنها لا تتقدم! ولقد شيدت القصور.. وأسست المصانع.. ومشت فوق سطح القمر.. بيد أنها فى غيبة الإيمان بالله تعالى تدور حول نفسها.. لتثبت فى النهاية كروية الأرض! وقد أثبتتها فعلا!

لكنها - حتى اليوم - لم تمكن الإنسان من التحكم فى خيرات هذه الأرض والإفادة من سنة الله تعالى فيها. واكتفت الحضارة المادية بإثبات أمر قد يكون عبثا وترفا.. إلى جانب تقدم الإنسان الحقيقى.. والذى لا يكون أبدا بعدد المصانع. لكنه بالدرجة الأولى مرتبط بباطن الإنسان.. وشحنه بدوافع الكمال - ثم الانطلاق به إلى آفاق الفضيلة.

وعندئذ تكون الحضارة - لو فعلت ذلك - سلاحا من أسلحة القدر.. يرحب به الإسلام.. ويمهد أمامه السبيل . من أجل سعادة الإنسان.

النظرية.. والتطبيق

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[1].

قد يجهد العابد نفسه بالليل ساجدا وقائما.. لكن عبادته تظل حبراً على ورق.. وإن شئت فقل: لونا من الأرق! إذا لم يسفر صبحه عن حركة دؤوب. يقتحم بها العقبة؛ فيعطى من ماله هذا المحتاج.. بعد أن أعطى من وقته لربه الغنى سبحانه وتعالى. ويستلفت النظر هنا: صدقُ الآية الكريمة فى التعبير عن منهج الإسلام الراشد حيال الواجدين والفاقدين معا: إنها تضيف المال إلى الواجدين: ﴿.. فى أموالهم﴾. تقديرا لغريزة التملك. واعترافا بالجهد المبذول فى تحصيل المال. وما يترتب على ذلك من انبساط النفس بالعطاء.. فى ظل من الإحساس بهذا التقدير لدوافعها.

ولكن هذا العطاء لا يصل إلى الفقير تفضلا أو استعلاء، إن ذلك من شأنه أن يخدش حياءه.

وما كان للإسلام أن يقدر شخصية الغنى. ثم لا يأخذ فى الحساب كرامة الفقير! ومن هنا تقرر الآية أن هذا العطاء، ﴿.. حق﴾ ليتقبله المحتاج بمشاعر الاعتزاز بدين لم يتركه مستعبدا تحت رحمة غنى: إن شاء أعطى وإن شاء منع.

إنه يقف إلى جانبه.. حين جعل له ذلك الحق نصيباً مفروضا.. ثم يتقدم به على طريق تكريمه خطوة أخرى إذ يطالب الغنى بمال عزيز عليه.. فيعطى الفقير من صميمه وجوهره.. وليس من أطرافه وحواشيه.. كما يفيد حرف الجر «فى». فلا يحيله مثلا على مدين له مماطل.. ليطالبه بدين فى حكم المعدوم؟! وإنما يعطيه من المال الحاضر.. والذى يعتز به صاحبه فعلا.. وتناوشه غريزة التملك حتى لا يفرط فيه.

ثم إنه «حق معلوم» مقدر من قبل الشارع الحكيم. وليس قابلا للتلاعب أو التحايل.. تحاشيا للنزاع.. وإبقاء على الود بين الطرفين.

---

(١) المعارج: ٢٤، ٢٥.

ولا بأس على الغنى حين يعطى أن يبدأ بما بدأ به الحق سبحانه وهو: السائل.. مع شدة حاجة المحروم إلى المال.. مبادرة من الإسلام للقضاء على ظاهرة التسول التى تشوه جمال الحياة.. وجمال النفس أيضا.

إننا نحيل المحروم إلى تجلده ومصابرته.. يحرسانه من الانهيار والتبذل لنسعف هذا الملحف فى السؤال .. أحيانا على الأقل.

وبهذا المنهج الحكيم يعيش الأغنياء والفقراء جنبا إلى جنب.. ولا تكون بنا حاجة ـ كما تريد الشيوعية ـ إلى تحريض الفقراء على الأغنياء .. بعد أن بادر الأغنياء بالعطاء على هذا النحو الكريم. فحققوا بهذه المبادرة معنى الأخوة. بقدر ما جنبوا المجتمع كله من حرب طاحنة تأكل الغنى.. والفقير.. على سواء .

العمل فى الإسلام
بين الكم والكيف

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا﴾[1].

عندما يشتد إحساس الإنسان بمسؤوليته فى موقع عمله.. فإن ذلك الإحساس يدفعه إلى إجادة العمل.. إبراء للذمة.. وإثراء للحياة.. لكنه قد لا يحصل فى النهاية على الثمرة المجزية لهذ العمل..

وقد يحزنه أن يرى.. صدقه.. وأمانته.. وصحوة ضميرة.. بضاعة مزجاة فى سوق لا تروج فيها إلا بضاعة الكذب.. والخداع!

وقبل أن تزحف ظلال من الأسى نحو قلبه.. يؤكد له الحق سبحانه أن أجره محقق الوقوع:

﴿إن الذين آمنوا.. إنا لا نضيع..﴾.

إنه إذن لن يضيع أبدا.. من حيث كان وديعة لدى من لا تضيع عنده الودائع سبحانه وإذا ضاعت ثمرة العمل فى زحمة العيش.. وصخب السباق.. وإذا كبا بالمؤمن جواده يوما.. بينما سبقته دابة عرجاء. إلى تحصيل متع الدنيا.. والإدلال بها..

﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم..﴾ و﴿قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾.

الأجر إذن مدخر هناك.. أجر من أحسن عملا.. أى عمل. فلو بدا للعين المجردة ضئيلا.. فليس فى الإسلام عمل كبير.. وعمل صغير.. إنما هناك عمل صالح.. وآخر طالح. وإذا صح أن يوصف بالكبر.. أو الصغر.. فليس لأن الأول عمل الغنى.. والآخر عمل الفقير. بل بمقدار ما يحصل من وصف الصلاح، وما يستجمع من عناصر الجودة والإحسان، ولو كان العمل نظافة

---

(١) الكهف: ٣٠.

الطريق.. أو إماطة الأذى عنه!

لقد كان ﷺ يخصف نعله.. ويرقع ثوبه.. ويراه الصحابة - رضوان الله عليهم - فينسجون على منواله.. ويقيسون حياتهم عليه. وعندما أراد أن يُعد غذاءه يوما مع بعض صحابته.. واختار كل واحد من العمل مايُرضى غروره النفسى.. تولى هو مهمة جمع الحطب.. بعد أن فرمنها الجميع. وبذلك رفع قيمة العمل إلى قمة عليا.. يرتفع إليها صاحب المنصب الصغير.. إذا أحسن عمله.. بينما ينحط الكبير.. إذا ما هوت به نفسه إلى درك الإهمال!

إن فطرة الإنسان قد تدفعه إلى العمل بحثا عن الطعام أو الكساء.. بيد أن همة المسلم ترمى به إلى بعيد.. فى ضوء إيمانه بربه سبحانه.. فيحس بأن الله تعالى يراه. ومن ثم يجىء عمله صالحا.. مصلحا للحياة من حوله..

وإذا لم يمتد عمره فلم يقطف ثماره.. فإن حرصه على الإحسان لا يفتر أبدا.. فالدار الآخرة هى الحيوان.. وثوابها ينبغى أن يكون مستراد آمال الإنسان.

لقد اتخذ المغرضون: ﴿مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين﴾ ومع ضخامة البناء وروعة التقسيم.. إلا أن مسجدا كمفحص قطاة أربى منه فى الميزان. لأنه عمل صالح أسس على تقوى من الله ورضوانه. فلا تهم الإسلام ضخامة العمل.. لأن عنصر الإحسان فيه هو مناط الحكم له أو عليه.

لا يأس.. مع الإيمان

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

على رغم أن الوالد هنا قد ابيضت عيناه من الحزن على فراق ولده يوسف.. ومع تحذير أولاده إياه من الهلاك لو أرخى لأساه العنان.. إلا أنه يرتفع فوق مستوى الحزن.. ويتخطى هذا التحذير.. ثم يتجه بقلبه إلى الله.. الذى يعلم منه سبحانه ما لا يعلم الأبناء. يعلم أنه. لا يأس مع الإيمان. وأن المؤمن فى معية الله سبحانه وتعالى يرى بنور الله من الحقائق ما يخفى على عشاق الدنيا. ويحس فى ظلمات الليل البهيم بوميض الحقيقة يتراءى لعينه من بعيد.. لأنه ينظر بنور الله.

ورغم اختفاء الولدين بلا أمل فى عودتهما كما يقول الواقع الماثل.. ومع ظهور بوادر التآمر من قبل إخوة لم يقدروا الأبوة قدرها.. فإن الوالد ينتهزها فرصة.. فيعلمهم درسا فى الإيمان بالله تعالى.. وعدم اليأس من روحه..

﴿يابنى﴾: هكذا يستعطفهم.. ويثير فى أعماقهم عاطفة الحنان.. فما زالوا أبناءه على ما ارتكبوه من خطأ.. وما زالت الرابطة المقدسة باقية.

وإذا كان هو يكلفهم اليوم بعملية البحث عن يوسف وأخيه.. فإنه يعدهم لذلك بإيقاظ همتهم الباعثة على العمل.. بنبذ اليأس. ولتكن الثقة بالله بديلا يمدهم بالنشاط والحركة.

وكما أن تركيب الراء والواو والحاء فى لفظ (روح) يفيد الحركة والخفة فى طلب الأمور.. فليشمروا للهمة عن ذراع ويكشفوا عن ساق.. بحثا عن الأخ الغائب.. فإنه: ﴿لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾.

إن اليأس فى تناول الحياة لا يكون إلا إذا فسدت فطرة الإنسان وانحلت عقيدته.. فظن أنه ـ سبحانه ـ غير قادر ـ أو غير عالم.. أو ليس بكريم.. وعندما

---

(١) يوسف: ٨٧.

يمنحك الإيمان بالله تعالى ثقة مطلقة بقدرته تعالى وعلمه وكرمه.. فإن اليأس لن يرف من حولك أبدا.. لأن منطق الواقع.. ولأن مقاييس البشر.. إذا عجزت عن حل الإشكال.. فإن لله تعالى قدرة عليا .. وعلما أوسع .. يهيمن بهما على الكون كله.. وما فى ضمنه ما تعانى أنت من مشكلة لا تساوى إلى جانب الكمال الإلهى نقيرا.

وبعد: فإلى الطبيب الذى توسل إليه المريض أن يبحث له عن علاج.. فقال له.. هذا لون من الأمل الكاذب. أقول له: إنه إذا كانت قواعد الطب ترفض علاجا معينا لعدم جدواه.. فإن الطبيب يخطئ الهدف حين يطبق هذه القواعد تطبيقا صارما.. لأنه يقضى على البقية الباقية من الإيمان فى نفس مؤمن تتقاذفه أمواج بحر هائل.. وهو فى حاجة إلى ربان ماهر يبقى على هذا الخيط الرفيع.. ليظل موصولا بخالقه سبحانه.. وهو وحده القادر على أن يجيب المضطر إذا دعاه.. والقادر أيضا على أن يميت مثل هذ الطبيب.. ويبقى مريضه هذا رمزا حيا.. وأملا تجيش به صدور العاجزين.

التطفيف.. كالجنون.. فنون!

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[1].

عندما يضعف الإيمان بالآخرة فى الصدور.. فإن الضمير الإنسانى يفقد أهم عناصر القوة فيه.. ومن ثم.. لا يمارس نشاطه بالقدر الكابح لهوى الإنسان.. الذى ينطلق فى غيبته على هواه.. مدفوعا بأنانيته.. وسوف يكون أشد اندفاعا فى صخب الأسواق.. وما تحفل به من صور الإغراء.. من حيث تبدو مظاهر الربح.. فيتبعها بحثا عنه من أى طريق.. وفى غمرة الكسب.. ربما لا يكتفى التاجر بأن يظل تاجرا. ولابد أن يتقدم خطوة أخرى.. ليكون جشعا.. حتى يشبع نهمة نفس لا يملأ عينها إلا التراب!

لقد تحولت نفسه برغباتها إلها يعبد من دون الله.. ومن صور الطاعة للمعبود الجديد.. أن توفر له متعته الوحيدة .. بإذلال الآخرين. ولا بأس أن يكون الخداع والنفاق شطارة يدل بها ويزهو..

إنه يحرص على حجم المكيال والميزان خوفا من القانون.. لكنه يستبد بالمشترى فيبيعه بالنقص ما اشتراه من المزرعة جزافا.

وتظل الحاجة إلى إشباع النفس تفتق الحيلة، فقد تتآكل الصنجات بين يديه.. ثم يكيل وهو مطمئن إلى أن حقه فى الربح محفوظ!

وقد يصدق فى المكيال والميزان معا. لكنه الصدق الكاذب.. إن صح التعبير.

لأنه يتخذ ذلك سبيلا إلى إخفاء ثمن السلعة الحقيقى.. فيبيع بعشرة ما اشتراه بثلاثة! والتطفيف.. كالجنون.. فنون!

وبهذ النفاق.. والخداع.. والكذب.. يجمع ثروة.. قد يتسع مداها بأسلوب لا تطوله يد القانون..

---

(١) المطففين: ١ ـ ٣.

ومن هنا كان عقابه صارما عند الله تعالى؛ لأنه كلما اشتد خفاء الجريمة كان جزاؤها صارما قاصما.. من أجل ذلك يهدد المولى عز وجل بالويل والدمار هؤلاء المطففين.

وأى قيمة لثروة فقدت عنصر الأمانة.. ووقفت بصاحبها على مشارف واد من العذاب .. والويل.. لا فكاك منه؟

وممن هذ الويل؟ من العالم بمسارب النفوس سبحانه..

فكل حركة لتاجر جشع هى مع علم الله تعالى تقع فى دائرة من الضوء.. فهى مكشوفة الزوايا.. واضحة المعالم. ثم هو سبحانه قادر على تنفيذ وعيده بالخسران.. فلن يعجزه ملك السوق هربا!

وهذا هو أسلوب القرآن الكريم فى ترويض النفوس بالخوف.. والرجاء.. تجد فيه الحكومة سندها الشرعى فى مقاومة الجشع..

ويرى فيه الدعاة إلى الله كيف يفرض عليه أن ينزل إلى الشارع ليواجه قضايا الناس اليومية بالعلاج.. ولن يجدى التعميم فى الدعوة شيئا.. فى وقت تستشرى فيه رذائل الشيطان بأسلوبها المغرى..

وأخيرا يجد فيه المطففون أنفسهم صورة للأنانية البغيضة.. وكيف يمسك التاجر بعصاه الغليظة يلهب بها ظهور «زبائنه» بينما هو يتقلب فى نعيمهم.

لقد خاطوا له الثوب.. ومهدوا له الطريق.. وبنوا له البيت.. بل وأمدوه بثروة قد تكون كبيرة.. لكنها فى غيبة عواطف المودة فى صدور الناس تجعل ربحه صفرا!!.

حياة .. بلا حياة

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾[1].

عندما يستبد بك انفعال ما.. ماذا يحدث؟ يتصبب العرق.. تتلاحق الأنفاس.. وتزداد ضربات القلب. والنتيجة: قصور فى النظر إلى ما حولك.. ومن حولك.. ومن ثم.. يختل الحكم على الناس. وعلى الأحداث.

نفس هذه الورطة وقع فيها هؤلاء عندما استبد بهم انفعال الفرح بالدنيا: لقد أفقدتهم ملكة التمييز.. فلم يروا حقائق الأشياء كما هى.. فَسَدَ عندهم التصور.. فساء التصديق.. وعاشوا رغم ترفهم حياة.. بلا حياة!

وعلى رأس الحقائق التى أعماهم عنها فرحهم الطاغى: إن الله هو القابض الباسط. وإن النعيم الذى يتقلبون فيه إلى جانب نعيم الآخرة لا يساوى صفرا!

على ما يقول ﷺ: **«والله ما الحياة الدنيا فى الآخرة، إلا كما يغمس أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر ماذا يرجع إليه»**.

وذهول الإنسان عن هاتين الحقيقتين يفقده معنى الحياة. فلا يحس لنعيمها بحلاوة. وإن شَغَل فى حيزها مكاناً مرموقا.

وماذا يبقى للإنسان إذا فقد الإيمان وهو نقطة الانطلاق الصحيحة.. إلى دار هى الحيوان؟

إن استحضار هذا المعنى فى وعى الإنسان هو الذى يجعل للحياة قيمة ولنعيمها وزنا.

وهنا نتساءل: هل معنى ذلك أن هناك خصومة قائمةً بين الإسلام وبين الحياة وما فيها من نعيم؟

---

(١) الرعد: ٢٦.

ويمكن أن نقول: نعم.. وأن نقول: لا.

نعم: يخاصم الحياة اللاهية العابثة. والتى تتخذ دور اللهو وساحات اللعب قبلة! الحياة التى لم تر للفضيلة فائدة محسوسة قريبة.. فرفضتها.. واتخذت من دونها المكيال والميزان إلها يعبد من دون الله.

ونقول: لا خصومة بين الإسلام وبين الحياة التى تتذوق فيها نعيم الدنيا وتفرح به فرحا لا ينسيك خالقه سبحانه وتعالى.

والمؤمن أشد فرحا بما هو أبقى من هذا النعيم الزائل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1].

وإذا كان الفرح بالدنيا لدى كبريات الدول يخنق صوت الحق وسط دوى المصانع.. وبريق المخترعات.. فإن ذلك لايخفى حقيقة أن المؤمنين هم الفائزون.. وأن المستقبل لهذا الدين العظيم.

لماذا؟ لأن المسلم يتعامل مع الحياة مدركا مغزاها.

ثم هو يتقلب على دروبها وتتربى روحه على قيثارة الألم مرة.. وعلى أنغام السرور أخرى.. فيبذل فى سبيل الله صابرا.. ويفرح بنعمته شاكرا. يفرح بلا بطر. ويتحمل الهموم الثقال بلا جزع.. غير أنه لا يتحمل لمسة واحدة من عذاب الضمير..

هذ الضمير الصاحى.. كالديابان اليقظ يضبط الخطى فلا تزل.. ويحرس القلب فلا يسكره نعيم زائل.. انتظارا لنعيم لا يزول.

---

(١) يونس: ٥٨.

التقوى.. وكرامة الإنسان

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[1] .

تحدثت الآيات السابقة من سورة الحجرات فيما تحدثت عن ضرورة التخلى عن رذائل التجسس والاغتياب والسخرية من أجل بناء الأسر والمجتمعات على أصولها الجامعة.

وإذا كان الهوى المتقلب من وراء هذا الشتات فى العلاقات الفردية والاجتماعية . . فإن آيات اليوم تستدعى البشر جميعا ليتحاكموا إلى مقياس واحد: هو التقوى يعفيهم من هذه الآفات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم..﴾.

إن الأصل الواحد دفع إلى التعارف . . لا إلى التخالف . . والشعوب والقبائل المنبثة على بسيط الأرض ينبغى أن تتكامل . . بدل أن نتصارع . .

إن فى كل أمة طاقات ومواهب ليست لدى الأخرى . . ومن شأن التصارع أن يذهب بهذه الطاقات سدى . . بقدر ما يكون التعارف سبيلا إلى تلافيها فى لقاء يثمر الخير والبر.

ولكى نستثمر ذلك التلاقى على الخير فإنه الحق تعالى يأمرهم بالتقوى . . ليتحاكموا إليها فى وزن الأحداث والرجال.

فمن أراد الفخر فعليه بالتقوى. ومن سره أن يكون أكرم الناس ـ فليتق الله.

وإنما الناس رجلان: مؤمن تقى كريم على الله، وفاجر شقى هين على الله.

---

(١) الحجرات: ١٣ ـ ١٥.

وفى ظل هذا المقياس تسقط دعاوى الفارغين من الناس.. وحين زعمت الأعراب الإيمان دون أن تملك مقوماته ردها الحق تبارك وتعالى إلى هذا المقياس مقياس التقوى..

إن مجرد دعوى الإيمان لا تدخل بالإنسان فى زمرة المؤمنين.. وإلى أن يدخل الإيمان فى قلوبهم.. فهم مسلمون فقط والطريق مفتوح أمامهم ليحصلوا عناصر هذا الإيمان بطاعة الله ورسوله وتحكيم شرعه الحكيم. وحينئذ فسوف يعطيكم الله أجركم كاملا.. ويرحمكم رحمة لاتبقى من خطاياكم شيئا.

وما أكثر دعاوى الإيمان والإخلاص ممن لا يرتفعون إلى مستواه وهم كهؤلاء مازالوا عند أول درجات السلم فليحاولوا لعلهم يصعدون.

وعليكم أن تفتحوا أبصاركم لتروا هذا النموذج العالى فى الطاعة متمثلا فى جماعة المؤمنين الذين: آمنوا بالله ورسوله إيماناً ظهرت بركاته فى أقوالهم وأعمالهم.. ووصل إيمانهم حدا من الرسوخ لا يتطرق إليه شك أبدا.. ثم.. هم حراس هذا الإيمان: أرواحهم على أكفهم.. فداء له.. وأموالهم كلها مرصودة لإعلاء كلمته.. وأولئك هم الصادقون.. لأنهم صدقوا الأقوال بالأفعال..

من جزاء المؤمنين

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ(٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ﴾.

إذا لاقى المسلمون من سفر الحياة نصبا.. فإن مسك الختام فى جنة الرضوان ليُنسيهم ما لاقوه من نصب ووصب..

ومن صور النعيم ماتصوره الآية الكريمة: فالذين آمنوا.. ثم وعلى هداهم سار أبناؤهم فإن الله تعالى يجمع بين الآباء والأبناء فى ظلال الجنة.. حتى ولو لم يكن الأبناء على مستوى الآباء فى الإيمان.

يقول ﷺ: **«إن الله يرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه، لتقربهم عينه»** ثم تلا هذه الآية.

إن اجتماع الأحبة نعمة فى ذاته تضاف إلى مايتقلبون فيه من صنوفه.

وإذا كانت مغارم الحق قد منعتهم فى الدنيا مما يعب منه المترفون.. فإنهم اليوم: يمدون: بفاكهة.. ولحم.

وليس هذا فقط من اللون الذى يشتهون.. فقد تتاح الفاكهة لكن عزوف النفس لا يجعل لها قيمة.. إن اليد التى خضبها الكفاح.. والقدم التى أرهقها السير فى مناكب الأرض سعيا على الرزق أو دفاعا عن الحق.. والجسوم التى غشاها من المعاناة ماغشى هاهى ذى تستريح اليوم.. ليطوف عليهم غلمان..

---

(١) الطور: ٢١ ـ ٢٩.

موقوفون على خدمتهم وإن لعبت خمر الدنيا بالرؤوس من بعد الكؤوس فإن خمر الآخرة مما تسعد به النفوس وإذا عبث العابثون فى الدنيا ففى الآخرة هم فى قمة عقولهم وفى هذه الجلسة الهاونة الوادعة يتجاذبون أطرف الحديث. . .

يتأملون فى صور التكريم والتنعيم. . ثم يتساءلون عن أعمالهم التى وصلت بهم إلى هذا المستوى من التكريم. .

وتسجل الآيات ذلك الجواب: كنا نحسن المعاشرة لأهلينا: برا بالولدين. . وحباً للأخوة. . ورعاية للجوار. .

نفعل هذا ونحن على غاية ما يكون الإشفاق والحذر حتى نظل هكذا مطيعين ولا نحبط أعمالنا بالانحراف عن هذا الخط المستقيم. فمن الله علينا فوقانا العذاب النافذ فى المسام. . والزحزحة عن النار فى ذاته نعمة. . ما بلغناها بأعمالنا مهما عظمت هذه الأعمال. . فلا تساوى شيئا إزاء نعمتيه: نعمة الزحزحة عن النار، ونعمة الجنة ونعيمها، ونعمة الصحبة المباركة.

إننا فى ظل دائم من إحسانه وبره سبحانه. . ومهما قصرنا فى أعمالنا فإننا مشمولون برحمته المنشورة على الكون. .

إنها نهاية يتضاءل إزاءها ما يتحمله المؤمن من أهوال الدنيا:

فما أرخص الثمن. . وما أجل الصفقة. .

وما أشد خسارة الذى أذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا. . فما لهذه المتعة من قيمة إزاء ما يتقلبون منه اليوم من عذاب مقيم.

الفتح المبين

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[1].

عندما أبرم ﷺ معاهدة الصلح مع المشركين فى الحديبية أحس المسلمون بمشاعر الخيبة لما لم يتمكنوا من أداء العمرة.. وكان لطف الله تعالى بهم أن أراحهم من وخز هذه المشاعر بما ساقته هذه الآيات الكريمة من بشارات نوهت بكرامة الرسول ﷺ عند ربه.. والثناء على المؤمنين الذين أيدوه ونصروه. بقدر مافضحت هؤلاء الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ.

ومع أنه لم تسل قطرة دم واحدة إلا أنه، كان فتحا.. بكل تأكيد وبكل المقاييس لم يكن فتحا.. بيّنا فى ذاته.. وإنما كان مبينا؛ بما كشف من معالم جديدة وحقق من مغانم ماكانت تخطر على بال:

قال الزهرى: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام فى قلوبهم. وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير. وكثر بهم سواد الإسلام.

قال الشعبى:

لقد أصاب رسول الله ﷺ فى الحديبية مالم يصب فى غزوة: غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر وبويع بيعة الرضوان.. وأطعموا نخل خيبر...

وبلغ الهدى محله... وظهرت الروم على فارس.

ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب على المجوس.

وإذن فقد كان صلح الحديبية فتحا.. للرسول الكريم، صار به طاهرا مطهرا من الذنوب.. وأتم الله عليه نعمته.. فانتصر فى معركته مع الشيطان وفى معركته مع الكفار.. فكان على غاية ما يكون الهدى.. الذى كشف الله تعالى به

(١) الفتح: ١ ـ ٣

المعالم.. وتوج حياته كلها بالنصر العزيز.. المكين.

وفى ظل هذا الرائد الذى لا يكذب أهله.. منَّ الله تعالى بالسكينة على الذين ثبتوا معه فى أحرج اللحظات..

ولقوا خير ماتوقعوا.. حيث نزلت عليهم السكينة مدداً من السماء صاروا بها أقوى الأمم كما يفيد معنى السكينة التى تعنى: ثبات الفؤاد. وسعة الصدر.....وبالتالى:

وضوح الرؤية الكاشفة المفرقة بين الحق والباطل.. وإذن فبالصلح فرق الله تعالى بين أدعياء الإصلاح .. والمصلحين حقا... وبعد أن كان النصر مقصورا فى الأذهان على مجرد الغلب فى معركة عسكرية.. صار بالدرجة الأولى متمثلا فيما تملكه الأمة من أخلاق عظيمة تصنع المواقف العظيمة.

من صور التيسير

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1].

يذكر المفسرون أنه فى أول فرض الصوم لم يكن يحل للمسلم أن يباشر أو يأكل أو يشرب لو نام الصائم بعد إفطاره.. فإذا صحا بعد نومه من الليل ـ ولو كان قبل الفجر ـ لم تحل له المباشرة كما لم يحل له الطعام والشراب.

وقد حدث أن بعضهم لم يجد طعاما عند أهله وقت الإفطار فغلبه النوم. ثم صحا فلم يحل له الطعام والشراب فواصل إلى الحد الذى بدت فيه المشقة فى أخذ المسلمين بهذا التكليف فتلطف الحق تعالى بعباده.. فأنزل هذه الآية التى تحل لهم المباشرة ما بين المغرب والفجر.. إلى جانب حل الطعام والشراب.

ولكن السياق هنا يرتفع بالعلاقة الزوجية عن معنى الحيوانية الهابط وذلك قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

فكلاهما ستر للآخر.. على النحو الذى يجعل منهما كيانا واحدا.. وحين يستر عيب صاحبه كأنه يستر عيبه هو.. ويحفظ وده حفظا يصيران به روحا واحدة تسكن جسدين.. تتم المودة بينهما عندما يقول أحدهما للآخر: يا أنا!!

ولعلنا ندرك سرا من أسرار لغتنا الجميلة حين تسمى الفتى ليلة عرسه عروسا.. والفتاة كذلك .. عروسا. وحين تطلق على كل منهما لفظ.. «زوج».. حتى إذا نطقت بالاسم شمل الاثنين وفى نفس اللحظة.

---

(١) البقرة: ١٨٧.

وتبدو الرحمة الإلهية التى لم ترهق الصائمين من أمرهم عسرا: فالخالق سبحانه يعرف ما قد تجره مخالطة الزوجين من إثارة للشهوة . . فأباح المباشرة بالليل تقديرا لطبيعة الإنسان. . هذا التقدير الذى صار درسا للدعاة. . كى يعينوا الواقعين تحت وطأة الذنوب. . حتى يتوبوا. . لا أن يكونوا سوط عذاب يضاعف من آلامهم.

وإذ يحل تعالى المباشرة. . فإن ذلك مما يفرض على المسلم أن يستهدف بها ما أراده الله تعالى من الولد الصالح الذى يمتد به العمر.

وحين يبيح سبحانه وتعالى الأكل والشرب فإنه يبيحه إلى أن يشرق الفجر. . ثم صوموا إلى أن يجىء الليل ولا تواصلوا حتى ترهقوا أنفسكم. . إرهاقا يذهب بحكمة الصوم. . وهنا تظهر حكمة تحديد مدة الصوم لتحقق العبادة غاياتها مع بقاء الصائم مستعداً لصوم يوم جديد بمزاج معتدل وقلب سليم.

فإذا حدث وقررتم الاعتكاف. . فلا مجال للمباشرة حينئذ. . لتتيحوا بهذا الزهد وقتا للنفس تتصل فيه بربها بعيدا عن زخرف الدنيا. . ولتستطيع مدة الاعتكاف أن تتذوق معانى فى الصفاء لا تستشعرها لو أخلت بواجبات الاعتكاف. .

وتلك حدود الله. . فلا تقربوها. . اجعلوا بينكم وبينه مساحة؛ حتى لا تسقطوا فى الحرام. . واغتنموا فرصة نعمة بيان ما أحل الله وما حرم. . لتشكروها بالتقوى التى تقف بكم على ربوة النجاة.

الليلة المباركة

﴿حمٓ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

أقسم الحق تعالى بالكتاب المبين.. وكما يقول المفسرون: «إن القسم بالشىء على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه فى غاية الشرف»[2].

وتطالعك من خلال الآيات الكريمة جوانب من هذا الشرف.. فهو الكتاب.. ولا كتاب سواه.. فحكمه العدل. وقوله الفصل. ومنه تشع أنوار الهدى.. لتبين للحيارى سبل السلام. وكان نزوله فى ليلة مباركة. ومن بركتها ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾. فصلت فيه الأمور تفصيلا.. وذللت قطوفها تذليلا.. فبان الحق.. وبان الباطل.. وتلك أعظم منة الله تعالى على الإنسانية.

إن مشكلة الأمم اليوم هى: اختلاط الأوراق.. وتداخل الأمور فيما يشبه الضباب المانع من رؤية الحق.. وخلال هذا الضباب الكثيف يمارس المبطلون هواياتهم المفضلة فى إضلال الآخرين. فلما طلع القرآن الكريم.. من أفقه العالى.. بدد الظلام .. فزهق الباطل.. فكان هو الفرقان الذى أنقذ الإنسان من براثن الطغيان..

وإذن.. فقد كان نزوله فى ليلة مباركة حقا.. ليلة وضحت فيها المعالم.. فلم تذهب طاقات الناس بددا.. وإنما تفرغ كل لما كلف به، ولم يشغله ما تكفل الله تعالى به.

وكما قيل حقا: «إنها لمباركة حقا تلك الليلة التى يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية. والتى يبدأ فيها استقرار المنهج الإلهى فى حياة البشر والتى يتصل فيها الناس بالنواميس الكونية الكبرى مترجمة فى هذ القرآن ترجمة يسيرة تستجيب لها

---

(١) الدخان ١ـ٦.

(٢) الفخر الرازى.

الفطرة وتلبيها فى هوادة وتقيم على أساسها عالما إنسانيا مستقرا على قواعد الفطرة واستجاباتها متناسقا مع الكون الذى يعيش فيه. طاهرا نظيفا كريما بلا تعمل ولا تكلف. يعيش فيه الإنسان على الأرض موصولا بالسماء فى كل حين»(٣).

ويلاحظ هذا الاكتفاء بوصف النذارة دون البشارة التى يأتى فى العادة مقارنا لها.. وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ذلك بأن الأمر على غاية الأهمية فقد كان الظالمون على غاية التمرد والغفله. فكانت النذارة وحدها صوت النذير يحركهم من رقادهم بقوة تنتزعهم من ضلالهم انتزاعا.. إنه الحزم الذى يقسو على المريض أحيانا.. لا يريد تدميرة بقدر ما يريد إيقاظه..

ولهذا كانت النذارة بالقرآن رحمة من الله السميع العليم.. تبصر الإنسان بعيوبه.. ثم بعاقبة أمره. ليحس.. ثم لينهض نافضا عنه صدأ العناد.. ويالها من رحمة مهداة من رب العباد.. لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا.

---

(١) فى ظلال القرآن.

ليلة.. ارتفع بها قدر الإنسان

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[1].

لأن الله تعالى يقدر الأمور فى ليلة القدر ويفصلها تفصيلا.. فهى لذلك: الليلة ذات القدر العلى والشرف الرفيع.. ومن مظاهر هذا الشرف: أن الله تعالى أنزل فيها القرآن.. والذى به ولد الإنسان.. لقد خلق الله تعالى الإنسان.. ثم توج هامته بهذا القرآن.. فصار به أثمن حلقة فى سلسلة الوجود..

وحين نتأمل فى السورة المباركة.. أبعاد هذا الشرف فإنا واجدون فيها عجبا. فضمير العظمة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ مشعر بعظمة القرآن الكريم، المردودة إلى عظمة منزله سبحانه وتعالى.. هذا القرآن الذى لم يصرح باسمه فى الآية الكريمة.. تنويها به وإشعارا بأنه غنى عن التعريف بماله من خصائص.. تجعله الكتاب - ولا كتاب سواه.. مما يفرض على الأمة أن تحسن صحبته تلمسا لأقباس من هذا الشرف العظيم.. واحتكاما إليه فيما يحدث لها من أقضية. ولقد نزل القرآن العظيم بالليل.. ولم ينزل بالنهار: ولليل إذا سجى خصائصه: ففيه انقطاع عن الشواغل ونسبة الرهبة فى القلب أشد.. بالإضافة إلى جو الصفاء.. الذى يتيح لمنافذ الإدراك فى النفوس أن تتفتح على ما في الكون من آيات. يشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا**﴾. ﴿**إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا**﴾. ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك**﴾. ﴿**ومن الليل فسبحه**﴾. ﴿**كانوا قليلا من الليل ما يهجعون**﴾.

ولعل فى هذه اللفتة الكريمة ما يلقى على المسلم خيال القرآن عبئاً ثقيلا. ليقرأه على مكث.. وفى لحظات الصفاء الخصْبة.. وحين تنازعك الأشواق لتستقبله بعقلك وقلبك معا.. فإذا أنت منه فى روض مونق. وفيها أيضا ما يلفت

---

(١) سورة القدر

نظر الأمة إلى ضرورة المكان المناسب والزمن المناسب لبحث القضايا المصيرية... التى نظلمها حين نبحثها على عجل.. وفى صخب تغيب فى دوامته أصوات الحكماء. وإنها لليلة مباركة حقا.. تلك التى هى خير من عمر مشحون بالعبادة..

وإذن فهى فرصة المؤمن الراغب فى المزيد من العبادة: ليجعل ساعته يوماً.. ويومهُ عاماً.. وعمره أعمارا..

إن هذا الحجم الصغير.. يمكن بالعبادة - أن يكون شيئا مذكورا.. لقد جعل الله الصلاة فى الحرم.. بمائة ألف فى غيره.

وتقرأ سورة الإخلاص.. فكأنما قرأت ثلث القرآن.. فلنحاول أن نجعل من حفنة التراب.. كائنا يلامس السحاب.. ولنبدأ رحلة العودة.. إلى البيت الذى اتخذناه مهجورا.. وهاهو ذا البيت يبدو قريبا.

وأبرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الديار من الديار.

الفتح المبين

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[1].

كان فتح مكة نصرا من الله تعالى مؤزرا.. بالسلاح الماضى والحجة الدامغة معا..ولقد جاء فى أوانه.. فكف الله به بأس الذين كفروا.. وزالت دولة الشرك.. فزالت معها الحواجز المانعه...فتدفق النور إلى فجاج الأرض جميعا.. فدخل الناس فى دين الله أفواجا.

وإذن... فاستقبل هذه النعمة العظمى بماهى أهل له: من تنزيه الله تعالى.. الذى يسر لك مالم يكن يخطر على بال بشر.. ثم بحمده على هذا النصر الذى جاءك فى ميقاته المعلوم.. حيث توفرت أسبابه. وكل ما قدر الحق تعالى من الأزل.. سيكون فى موعده..

وإذا كانت النفوس أحيانا تستيئس فتستبطئ النصر المأمول بدافع العجلة التى هى طبيعة الإنسان.. فإن واجبك الاستغفار من مثل هذا الخاطر [هضما لنفسك واستقصارا لعملك] وإيمانا بأن ربك لن يودعك.. وإنما هى قضية الابتلاء.. ليميز الله الخبيث من الطيب.

وتأمل كيف قدم السياق [الاشتغال بالخالق على الاشتغال بالنفس فذكر أولاً من الخالق أمرين: أحدهما: التسبيح. والثانى: التحميد.

ثم ذكر فى المرتبة الثالثة: الاستغفار وهو حالة ممزوجة من الالتفات إلى الخالق وإلى الخلق].وهومنهج فى العبودية شعاره: [ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله] وهو منطق أعلى كما يقول الرازى من قولهم:[ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله بعده].

وهكذا مع كل انتصار.. يكون التسبيح والحمد والاستغفار.. وإن ناسا نسوا

---

(١) سورة النصر.

الله فى نشوة انتصارهم الذى نسبوه إلى أنفسهم.. فأذاقهم الله لباس الخوف.. بما أخلفوا الله ما وعدوه.

فلبيق الفتح المبين دليلا على الطريق بما حفل به من دروس منها: ظهور قيمة العفو عند المقدرة وآثارها البارزة فى تصفية النفوس من أكدارها. ثم ما كان من تواضعه ﷺ حين دخل مكة خاشعاً.. خافضاً رأسه.

وتبرز قيمة المساوة حين دخلها وقد أردف أسامة بن زيد وهو ابن مولى رسول الله ﷺ.. ولم يردف أحدا من أبناء هاشم.. ولا من أشراف قريش.

وحين أرادها بعض المتحمسين ملحمة تتفجر فيها الدماء.. أرادها الرسول ﷺ مرحمة تصان فيها الدماء.. وفتحت قريش أعينها على هذه القيم الرفيعة:. فدخلوا فى دين الله أفواجا.. ثم صاروا من بعد جندا للحق.

إن فتح مكة لم يكن فتحا عسكريا بالمعنى المعروف اليوم.. بل كان قبل ذلك فتحا للقلوب.. التى ولدت به من جديد.. فأحياها بعد ممات.. وهكذا يظل الإسلام.. دين السلام..وأين منه اليوم مانراه ونسمعه عن جبارين.. ثارت أممهم لتناقشهم الحساب.. فسالت الدماء أنهارا.. ليبقى الجلادون على كرسى محمول على جماجم الضحايا..فإلى الإسلام.. إلى دين السلام

نعمة الرسالة

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

تحدثت الآية السابقة عن رحمة الله تعالى .. والتى وسعت كل شىء..وفى طليعة الفائزين بها: بنو إسرائيل إذا هم أدوا حق الله تعالى .. بالتقوى.. وحق الإنسان بالزكاة...صادرين فى كل ذلك عن عاطفة إيمانية جياشة بآيات الله سبحانه وتعالى .. متبعين الرسول الذى يبلغهم عن الله تعالى ما كلفه بإبلاغه ...يعينهم على ذلك الإيمان أمور:

١ ـ فهو أمى .. ومع ذلك يتربع على قمة الكمال العلمى والنفسى وتلك معجزة من شأنها أن تلوى أعناقهم لتخضع لها.

٢ ـ بالإضافة إلى أنه مذكور عندهم فى التوراة والإنجيل ولا ينبغى إنكار الشمس الطالعة وضح النهار.

٣ ـ وهو مذكور فى الكتب السابقة بوصف كونه منقذهم من الضلال .. وهاديهم إلى الله تعالى:

أ ـ يأمرهم بالمعروف الذى تحكم الفطرة الصافية بحلّه.

ب ـ وينهاهم عن المنكر المرفوض من قبل هذه الفطرة النائية بطبعها عنه.

جـ ـ والواقع شاهد بذلك: فها هو ذا يحل لهم الطيبات.. ويحرم عليهم

---

(١) الأعراف: ١٥٧، ١٥٨.

الخبائث.. فكان ذلك دلالة على أنه الدين الحق.. من حيث كان التعبير

الصادق عن النفخة الإلهية التى صار بها الإنسان إنسانا.

د ـ ولقد خفف عنهم مشقات ضربت عليهم ليلا طويلا.. ويفرض عليهم الوفاء أن يشكروه.. لا أن يحاربوه.

فالذين شكروا هذه النعمة فآمنوا بالله تعالى.. وعظموا رسوله ونصروه.. وأخذوا سبيلهم على ضوء نوره الكاشف أولئك هم المفلحون.. أما الذين أداروا ظهورهم له.. وكذبوه.. فقد جنوا على أنفسهم..

ومهما ضللوا.. فإن ذلك لا يخفى الحقيقة التى أمر الرسول بإعلانها وهى: أنه رسول الله إلى الناس جميعا.. ولو كره المضلون.. ومنه تعالى يستمد العون على مواصلة الجهاد.. فهو سبحانه القادر على نصره.. فالأرض جميعًا قبضته. والسموات مطويات بيمينه.

ومن مصلحة البشير أن يذكروا هذه الحقيقة الحاملة على اتِّباع النبى الأمى الذين يؤمن بالله وكلماته: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وظيفة الرسول

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

لا يعرف قيمة النور إلا من عاش فى الظلام زمنا طويلا.

من أجل ذلك كان المؤمنون أكثر الناس إدراكا لنعمة الرسالة التى جاءهم بها محمد ﷺ نورا وهدى .. بعدما عاشوا فى غياهب الجهل دهرا طويلا..

والآية الكريمة تمن على المؤمنين خاصة بنعمة إرسال محمد ﷺ.. لأنهم المنتفعون بهديها .. الشاعرون بالفرق الهائل بينما كانوا فيه.. وما صاروا إليه..

وإن إحساسهم بالنعمة الجزيلة ليزداد .. لماذا؟

١ ـ لأنه بدأ رحلته المجيدة من بينهم .. من أرضهم.

٢ ـ ثم هو من جنسهم:

أ ـ عربى مثلهم .. يفهمون كلامه بيسر.

ب ـ ثم إنهم عايشوه .. فلمسوا عن قرب ما كان يتحلى به من عظيم الأخلاق.

جـ ـ أى أن دلائل عظمته وأحقيته بالرسالة لن تكلفهم مشقة البحث عن أهليته.. فهى متاحة بين أيديهم.

د ـ ثم هو من أنفسهم .. من أشرفهم نسبا .. ومن شأن سليل الشرف العالى أن ينزه نفسه عن النقائص.. ولو حاول الكذب ما طاوعته نفسه. ثم هو يبذل فطرته النقية .. فإذا قال صدق .. وإذا وعد لم يخلف.

٣ ـ ولقد جاءهم بمنهج كامل فى نفسه .. ومن شأنه أن يجعل منهم خير أمة أخرجت للناس:

---

(١) الأعراف: ١٦٤.

ومن خصائص هذا المنهج:

أ - يتلو عليهم آيات الله .. فيغسل أسماعهم من فاحش القول.. وما ألفوه من القيل والقال.

ب - ثم يقود حملة التطهير إلى أعماق القلب البشرى .. فيزكيه .. ويطهره من علل الباطن: من الكبر، والحقد، وسوء التدبير، وسوء الاعتقاد..

جـ - ثم يعلمهم ما فى الكتاب من مبادئ سامية .. تحلية لهم . بعد تلك التخلية .. ينفضون بها عن عيونهم آثار نوْم طويل .. وغفلة أضاعوا فيها أيامهم فى محبة العاجلة.

وما أعظمها من نعمة إذا تصورنا النقلة الهائلة التى تمت بها: فلقد كانوا من قبلها: غارقين.. فى .. ضلال .. عميق. .عميق.. ثم هو ضلال بلا حدود.. شمل مساحة النفس كلها. .ثم هو بيِّن. ظاهر لكل ذى عينين.. فلما جاء محمد ﷺ: انتشلهم من هذا القاع..، وطوى ستار ليل بارد طويل، فتمت كلمة ربك صدقا وعدلا، والذى كان انقساما، صار ودا ووئاما، والذى كان خصاما ..صار أعمالا جساما.

الرحمة المهداة

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾(١).

كانت رسالته ﷺ رحمة مهداة . ونعمة مسداه حتى بالنسبة للكفار:

فقد أمِنوا به مما عذب الله تعالى به الأمم السابقة: من عذاب الخسف، والمسخ، وعذاب الاستئصال، فعاشوا فى ظل من رحمته ﷺ .. تلك الرحمة التى بلغت الذروة بحقيقة التوحيد: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

لقد كانوا يعفرون جباههم للحجر..وللشجر .. وللبشر .. فبلغ بهم الهوان أن عبدوا من هو أقل منهم قدرا .. فمرغوا بإنسانيتهم فى التراب. فجاءهم ﷺ بالتوحيد.. يرفع به جباههم لتكون كما خلقها الله تعالى .. عالية سامقة، وليحميهم فى نفس الوقت من تمزق النفوس التى توزع ولاءها فى كل اتجاه.. ولا تستقر على حال من القلق.. وحين يدعوهم إلى ما ينقذهم لا يفرضه عليهم فرضا.. وإنما يجعل الأمر إلى اختيارهم. ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

فإن تولوا يامحمد..فقل : لقد صرنا فى معرفة الحق سواء.. وانتهت مهمتى عند هذا الحد.. واقفا عند حدود بشريتى .. فلا أدرى ما يفعل بى ولا بكم .. فلا وصاية لى عليكم .. وإنما على البلاغ وعلى الله الحساب. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

وإذا سول لكم شيطانكم أن بقاءكم أغنياء .. سالمين... ظافرين أحيانا ..

---

(١) الأنبياء: ١٠٧ ـ ١١٢.

دليل على إفلاتكم من قبضة القدر.. إذا سول لكم ذلك.. فاعلموا أنكم واهمون.. فلعل تأخير العقاب يكون ابتلاء.. ومتاعا إلى أجل محدود وقريب، تنالون فيه جزاءكم المرصود على ما قدمت عقولكم من خرافة.. وقلوبكم من حسد.. وعندما يحين وقت عقابكم فهو نازل بكم لا محالة. ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

شهر القرآن

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

إذا كان الإنسان قد ولد بالقرآن ميلادا جديدًا فقد وجب عليه أن يشكر هذه النعمة التى وجد بها نفسه بعد أن كانت من قبل فى ضلال مبين.

ومن صور الشكر صوم شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن.

إن القرآن كتاب الله تعالى .. والصوم من دون العبادات كلها له سبحانه وحده.. ومن ثم كان من التوافق والتوفيق أن نشكر النعمة بما يناسبها .. ويمكنّ لنفائلها فى النفوس .. وهو الصوم.

نعم .. لقد كان القرآن الكريم نعمة عظمى.. تعددت فيه نواحى العظمة.. فهوى هدى .. للناس .. كل الناس..

بل إنه فى باب الهدى بالمقام الأسنى .. الذى لا يبقى عذرا لإنسان .. إلا أن يستكبر استكبارا يتجاهل به دلائل الهدى التى تأخذ بحجزه إلى الخير .. لكنه لا يريد! ويكفى أن الله تعالى فرق به بين الحق والباطل .. فأبصر الإنسان طريقه .. وخرج من عتمة الضلالة إلى حيث النور والحياة. وتقضى شريعة العدل أن نشكر هذه النعمة بما حدده المنعم سبحانه: فمن كان حاضرا واستيقن من رؤية الهلال فليصمه..

لكن المشرع العظيم حكيم أيضًا حين قدر علة المريض.. وظروف المسافر فأباح لهما الفطر تيسيرا .. إلى أن تحين الفرصة من لقضاء ما عليه..

وفى حالتى الصوم والفطر معا تلمح مظاهر التيسير فى شرع الله تعالى..

---

(١) البقرة: ١٨٥.

لينعكس من هذا التيسير على خلق المسلم قبس من سماحة القرآن.. هذا الخلق الذى يصبح ثمرة من ثمرات الصوم.. والذى يرطب جفاف المعاملات الإنسانية.. إلى جانب ما يحصله الصائم من فضيلة الشكر.. شكر المنعم سبحانه .. على نحو يجعل من الاعتراف بالجميل فى علاقات المسلمين دينا واجب السداد..

ويا ليت الصائمين يعلمون .. كيف يهب الله تعالى النعم .. ثم يشكرها وكيف يخنس الإنسان الكنود.. فينسى النعمة .. ويتجاهل الجميل يقدم إليه .. ذاكراً فى الحالين نفسه التى تواتيها اليوم فرصة العودة إلى الله تعالى .. ذاكرة .. صابرة .. شاكرة... فهل تعود؟

التربية القرآنية

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[1].

أنزل الله تعالى القرآن ملتبسا بالحق.. وذلك قوله تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ ﴾

فلما هبط إلى الأرض ظل كذلك حقا .. لا تطوله مؤامرات التحريف وذلك قوله تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾

وإذن .. فالحق لحمته ..وسداه..فلا تشغل نفسك بما لم تكلف به.. وارصد كل طاقاتك لوظيفتك التى هى: البشارة والنذارة، بهذا القرآن الذى كان نزوله منهجا للتربية ليعينك الله تعالى به على صياغة خير أمة أخرجت للناس...

لقد أنزل عليك الكتاب مفرقا .. يلاحق كل يوم ما أحدث الناس من أمور .. يقول فيها فصل الخطاب.. الذى يميز به الله بين الحق والباطل.. فخذ الناس بهذا المنهج المكيث الحكيم: فاقرأه وأمتك معك على مهل، فإن ذلك أيسر للحفظ، وأعون على فهم عميق لمراميه..

إن الذين يمضغون ألفاظ القرآن، مقصرون فى حق القرآن.. وليت الذين يمسكون بالمصحف لائمين غيرهم بالتقصير .. ليتهم يتهمون أنفسهم بالظلم حين يتعاملون مع القرآن بلغة الأرقام.. فالأهم عندهم كم يقرؤون .. وليس مهما: كيف يقرؤون وهذه الكيفية هى الأساس فى تربية الناس..

وأعظم من السباق فى قراءة القرآن.. أن تتوقف أمام الآية لتستخرج من بحورها ما لذ وطاب من قيم الإيمان...ولقد نزل الحق تنزيلا .. وعلى المدى

---

(١) الإسراء: ١٠٥ ـ ١٠٩.

الطويل . .ليتسرب منه إلى الأعماق رحيق يسرى فى دمائنا . . فإذا أقوالنا . . وأفعالنا عليها من عزة القرآن دليل.

وها هو ذا القرآن يعلن عن نفسه . . وعن منهجه فى التربية . . فهل أنتم فاعلون؟ آمنوا به . . أو لا تؤمنوا . . لا بأس، فالقرار قراركم . .

وإيمانكم به لن يزيد القرآن كمالا . . كما أن تخليكم عنه لن يلحق به نقصا . .

ويكفى أن الله تعالى يسره لمن هو أفضل منكم من العلماء فآمنوا به . . بل انفعلوا به: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

المال والتربية القرآنية

يقول الحق سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1].

حين يدرك المسلم أن بسط الرزق وقبضه ظاهرتان مردودتان إلى مشيئة الله عز وجل.. فإنه سيريح ذهنه المكدود.. وأمله الممدود من إذلال نفسه فى سبيل صفقة.. لا يملك وسائل تحقيقها.. ليعود بنشاطه إلى حجمه المقدور له.. عاملا فى حدود طاقته. غير متجاوز بالآمال وشطحات الخيال.

وإذا كان طبيعيا أن تشغل قضية الرزق الإنسان حيثما كان إعفافاً لنفسه.. وكفاية لحاجته.. فلا ينبغى أن يلهيه التسابق المذعور عن حق المسلمين عليه، لكن المال عزيز على الإنسان... ومن ثم.. فالأيدى الندية بالعطاء قليلة..

من أجل ذلك تحرّض الآية الكريمة الفقراء والأغنياء جميعا لينفقوا.. ويسابقوا.. وهى فى تحريضها على الإنفاق تسقط الحواجز المانعة والتى تمسك يد الفقير.. والغنى على سواء. فقد يمتنع الفقير عن البذل حين يرد الحياء يده. تحت وطأة الشعور بضآلة المبذول..

وكأن الآية الكريمة تقول له: ما أنفقت من شىء - مهما كان قليلا ضئيلا - فهو مقبول: ربما كان قرشك البسيط رغيفا يسد الجوعة.. أو حبة دواء تسكن الألم.

ثم إن الإسلام يرحب بكل بادرة فى اتجاه الخير.. فيمسك بها.. ثم يصلها بالواقع.. لتقوى بالممارسة اليومية.. ثم تصبح عادة محببة إلى النفس... وإلا.. فلو استقل الفقير ما ينفقه فأمسك فإن هذه الرغبة فى الإنفاق سوف ترتد حسيرة إلى الداخل. فلا ترى النور..

---

(١) سبأ: ٣٩.

وحينئذ فسوف تموت دوافع خير لم نمكِّن لها فى نفوسنا.. وعلى هذا الفقير.. أن يذكر أخا له على طريق الخير.. سقى كلبا.. فغفر الله له.

وعاد الرجل الذى كان عودا تحرى لحاؤه.. وكاد أن يكون حطبا للنار. عاد بهذه اللفتة اليسير غضّا.. يأخذ بالإنفاق سبيله إلى جنات عدن.

أما فيما يتعلق بالغنى: فقد يمسك الحرص يده.. فلا يبسطها بالعطاء.. ذلك بأن حياته قائمة على الجمع والطرح.. فلو تصدق بمائة مثلا فسوف تصبح الألف تسعمائة؟!

وتصوره لزملاء السوق الذين تربوا أرصدتهم فى البنك.. سوف يقضى على كل أمل فى الإنفاق..

ولكن الآية الكريمة تملأ وعيه بهذه الحقيقة: ﴿وما أنفقتم من شىء﴾ مهما كان كبيرا غاليا.. فإن الله تعالى يعوضه.. ﴿فهو يخلفه﴾ نعم قد تختفى المائة من جيبك. إلى جيوب الآخرين.. ولكن ما رأيك فى مودة تنبعث من قلوب هؤلاء إلى قلبك الذى يتلقاها راضيا سعيدا؟ وأين ثروة الجيوب.. من ثروة القلوب؟

ثم. إن ما تنفقه من جيبك سيصير جنودا تقف إلى جانبك ومن بين يديك ومن خلفك.. وبهذه الشعبية تذلل أمامك الصعاب.. فإذا أنت تضيف إلى ثروة الرجال.. ثروة المال.. واذْكُر جيدا إن كان فى قلبك بقية من مقاومة.. اذكر أن الله تعالى هو الذى خلق الثروة.. وهو الذى أعانك على استثمارها.. وما أنت فيها إلا خازن أمين..

وتلك نعم يمن بها عليك: ﴿خير الرازقين﴾ سبحانه وتعالى لتنعكس على طبعك من هذه الخيرية أقباس يُصلح الله بها من أمر الناس.. بما تعطيه من مال وجهد تشكر عليه. الذى اختصك بهذا العطاء سبحانه شكرا تسعد به عياله تعالى من الخلق.. وسوف يولّد شكر النعمة.. نعما أخرى.. تؤكد كيف كان الإنفاق بذورا وضعتها فى تربة خصبة.. فصارت جنات وحب الحصيد..

من ثمرات الكلمة الطيبة

﴿ألَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[١].

فى مجال الطاقة يقولون: يمكن تسليط شحنة كهربية على غاز خامل فتتولد منه «الكترونيات» يمكن استخدامها فى الحياة..

وفى المجال الإنسانى يمكن أن نقول: إن تمثل كلمة التوحيد بالعقل والقلب.. قادر على أن يخلق فى الإنسان طاقة فاعلة تعيد تكوينه من جديد. وإذا بالغرائز التى تمزق الإنسان.. إذا بها - كما قيل - تغير اتجاهها: تصبح نزعة التملك لعمارة الحياة.

ويصيرالعلم نورا يكشف .. لا نارا تحرق.. وإذا القوة ديديان يحرس الحق..بدل إيذاء الخلق.

ومعنى ذلك أن عقيدة التوحيد فى قلب المؤمن تصبح قاعدة الانطلاق إلى الرخاء. هذا ما يشير إليه نسق الآية الكريمة التى توضح خصائص الكلمة الطيبة بعامة.. ثم كلمة التوحيد بخاصة.

إنها كلمة مركبة من حروف. لكنها كشجرة. بكل ما تشير إليه من خضرة. ونضرة.. وجمال... ثم إنها طيبة .. مثمرة .. منتجة..

والطيب هو: الحلال .. الذى تستلذه الحواس. وهو الطاهر.. الزاكى .. المبارك..

قال تعالى: ﴿والطيبات للطيبين﴾[٢] أى أن الأعمال الطيبة تكون من الطيبين كما روى: إن المؤمن أطيب من عمله، والكافر أخبث من عمله.

ثم إنها ضاربة الجذور فى أعماق الأرض.. فهى ثابتة.. دائمة العطاء تستمد

---

(١) إبراهيم: ٢٤، ٢٥.

(٢) النور: ٢٦.

من الأرض غذاءها.. وفى السماء كذلك.. من حيث كانت سامقة فرعها فى السماء.. تأخذ حظها الوافر من الهواء والضياء.

وليست هى موسمية تعطيك الثمار بين الحين والآخر. ولكنها تعطيك كل حين ﴿أكلها دائم وظلها﴾. وأجمل ما فيها.. أن عطاءها بإذن ربها.. تلطفا بك وشفقة عليك. وتقديرا لك.

ومن تمام لطفه سبحانه وتعالى بالناس.. كل الناس أنه يضرب لهم الأمثال .. لعلهم يتذكرون..

إن فطرة التدين ولدت معهم.. وحقائق الإيمان مركوزة فى طباعهم.. لكن غاشيات الهوى قد تضرب عليهم ستار النسيان فينسون.. وهذا هو الحق سبحانه يتلطف بهم.. فيذكرهم .. بما يحملون فى كياناتهم من عناصر الهدى.. فهل يستجيبون .. فيتذكرون؟

إن المؤمن بكلمة التوحيد.. ثم بكل كلمة طيبة يرطب بها لسانه يستطيع أن يكون شيئا مذكورا.. عزيزا... يستطيع أن يكون سلعة غالية الثمن.. فلا يبيع نفسه إلا للقادر على دفع الثمن سبحانه وتعالى..

وكما يقول جلال الدين الرومى:

[إن سلعتك التى لا يرغب فيها مشتر قد اشتراها الكريم تكريما وتفضيلا. إنه لا يرفض قلبا من القلوب إنه لا يقصد الربح].

وإذ يضرب الحق تعالى الشجرة مثلا.. فإن قلب المؤمن بكلمة التوحيد.. ولسانه بالكلمة الطيبة يكون أزكى.

إن الحدائق: تبطئ فى الثمار.. وتسرع فى الفناء.

وقلب المؤمن: يسرع فى النمو.. ويبطىء فى الزوال. فليصعد الثرى.. إلى الثريا. وليصعد التراب.. إلى رب الأرباب! ليصبح عندئذ: شمسا.. لاينتابها الأفول. وزهرة.. لا يعتريها الذبول.

من سمات الأبرار

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾[1].

عندما تلصق زهرة ناضرة بشجرة ذابلة. فإن ذلك لن يجعل الشجرة الضامرة.. مزهرة!.. إن هذه الفروع الذابلة فى حاجة إلى وابل من المطر يحييها بعد مماتها.. لتأخذ سمتها.. مع غيرها من أشجار الوادى. وهذا مثل منهج الإسلام فى إحياء النفوس التى توشك بالحرمان أن تموت.

كان ذلك المنهج على قدر قامتها رافعا من قيمتها. فصل عليها تفصيلا انسجم مع طبيعة الفرد وطبيعة المجتمع. فلم يكن هناك تباغض ولا تناقض.. وإنما الود بعد الخصام.. والوئام بعد الانقسام.

والآية الكريمة خط من خطوط المنهج الإسلامى الرامى إلى التوافق بين الواجدين والفاقدين وصولا إلى هذا الود المنشود.

فالمحروم فى حاجة إلى الطعام.. والأمن معا. وواجب الأبرار أن يطعموا الطعام. على أن يكون الطعام له قيمة عند صاحبه. بل إنه ليحبه حبا تمكن من قلبه كما يفيد الحرف ﴿على.. حبه﴾.

ثم يأخذ المال سبيله إلى نقاط الضعف فى الصف المؤمن. وإلى مواطن الخلل فيه حتى يستوى الصف على سوقه. وما أكثر الموائد الحافلة بأطايب الطعام. وليس لها فى ميزان الإسلام حساب.

ولنتصور ذلك المسكين أكل.. فشبع.. فهل انتهت معه مهمتنا؟ أبدا.. إنه فى حاجة إلى إشباع نفسه الطامحة إلى التكريم الأدبى:

لقد رآه الصغار فى البيت يأكل أفضل مما يأكلون.. وخارج البيت أيضا ترقبه

---

(١) الإنسان: ٨، ٩.

أعين الطفيلين. . فلنقف إلى جانبه لنطرد عنه خواطر الهوان:

وذلك ما تكلفت به الآية الكريمة فى نصفها الثانى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ إننا لانطعمكم طلبا للثناء من أحد. كما أننا لا نُرضى غرور أنفسنا. . ولا نزعة الاستعلاء فيها. وإنما هو عطاء. . خالص. . وشكر. . على نعمة أقدرنا الرزاق عليها حين منحنا وسائل تحصيلها. وقبل ذلك منحنا الوجود نفسه.

وإذا كان الخلق جميعا عيال الله تعالى. . فقد أصبح الطعام أمانة يتعاورها البشر. ولا ملك هناك لأحد. ولامنة لأحد على أحد. ولقد كانت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ تبعث بالصدقة إلى أهل بيت. ثم تسأل المبعوث عما قالوه. فإن ذكر دعاء. . دعت لهم بمثله. ليبقى ثواب الصدقة خالصا لها عند الله تعالى. ولا تتم الصدقة كما لا حتى يقول المطعمون فى مواجهة الطاعمين. ﴿لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾ ليخرج المضيف من القضية بالكلية. فلا وجود له هنا. . إلا أن يكون واسطة فى إيصال الحق إلى ذويه. . وإذا كان من جزاء . . فمن الله.

وما يكون من شكر فلله تعالى . . الذى رحم عبده الغنى فحماه ـ عن طريق هذا المسكين ـ من القسوة وهى أعتى أمراض القلوب. بهذه الضيافة. . فالفضل لله ثم لكم أيها الآكلون. وصدق الرسول الكريم حين وصى رجلا اشتكى إليه قساوة قلبه: «**أدن اليتيم منك.. وامسح رأسه.. وأطعمه من طعامك.. فإن ذلك يلين قلبك.. ويقدر على حاجتك**».

الشخصية المسلمة فى مواجهة الأحداث

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾[1].

الفرح الشديد بما آتانا الله من خيرات. كالحزن الشديد على فقدانها. كلاهما صدمة عصبية قد تسكت نبض قلوبنا.. أمام مفاجآت لم تكن لنا فى حساب.

وحماية للإنسان من مضاعفات هذا الانفعال القاتل فى السراء والضراء.. تمسك بنا الآية الكريمة على خط اعتدال حفاظا على حياتنا قبل أن يذهب بها الانفعال سدى. فما أصابكم من مصيبة.. جلت أو قلت...

فى الأرض: جدبا.. وقحطا. نقص ثمار.. أو غلاء أسعار، أو فى أنفسكم من مرض.. أو هم..أوحزن. كل أولئك: مثبت فى كتاب محفوظ.. لاتناله الأيدى.. ولا مبدل لكلماته ﴿لايضل ربى ولا ينسى﴾. هو ثابت حتى قبل أن يخلق الله تعالى الكون..واستقرار هذه الحقيقة فى القلوب.. من نشأته أن يرطبها باليقين.. والقرار.

فما دام الأمرقدرا مقدرا فلنستقبله راضين.. ولنستجب له طائعين.. فما لنا من خيرة فى أمورنا.. ولكن الخير فيما اختاره لنا ربنا سبحانه وتعالى.. فإذ صور الوهم للناس استحاله أن تنضبط هذه لأحداث التى تفوق الحصر فى كتاب. فإن لدى المؤمنين الجواب بأن ذلك على الله يسير .. يسير. فليحسن المسلم استقبال الأمور بقلب سليم.

ولا يعنى ذلك تحريم الفرح والحزن بقانون.. فذلك مالا يكون! ذلك بأن الذى خلق القلوب سبحانه.. لم يكن ليرميها تعالى فى البحر.. بحر الهموم مقيدة ثم يمنعها من البلل!

---

(١) الحديد: ٢٢، ٢٣.

وكما قال ابن عباس - رضى الله عنه -:[ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن. ولكن اجعلوا للمصيبة صبراً وللخير شكرا].

الممنوع إذا هو ما يدخل فى دائرة اختصاصك: أن يخرج بك الحزن إلى منطقة اليأس على ما فات.. لتصبح أيامك بكاء على ماض لا يعود...وأن يدخل بك الفرح بالنعمة فى منطقة الاستعلاء والخيلاء.. والاستكبار على عباد الله.. ولله فى خلقه أناس نجحوا فى فلسفة الحياة برؤية إسلامية.. فكانوا فى خضم المصائب أصلب عودا.. وأجمل صبرا؛ قطعت يد عالم عابد.. وفى نفس الوقت. علم بمقتل ولد له. فقال: اللهم: أخذت عضوا.. وتركت أعضاء. وأخذت ابنا. وتركت أبناء. فإنك إن كنت أخذت لقد أبقيت..وإن كنت ابتليتنا.. لقد عافيتنا!!

لقد كان الرجل محكوما بروح القرآن القائل: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾.

وها هو ذا يحاول أن يعد نعمة الله عليه.. فلا يستطيع. ثم يطرح منها ذراعه المقطوع.. وولده القتيل فإذا باقى الطرح نعم تستحق الشكر!

إنه لا ينكفئ على ما مضى.. بكاء وعويلا.. لكنه يركز على ما بقى.. فإذا هو من نعم الله فى رخاء.. وأكبر هذه النعم.. ما حباه الله من أصدقاء.. لا يجاملونه بالبكاء كما تفعل النساء. وإنما يشدون من أزره بالقول السديد: لقد جاءه صديقه يعوده فقال له:

إنا لله وإنا إليه راجعون... والله ما انتظرنا منك الفوز فى مصارعة ولا سباق.. ولقد أبقى الله لنا ما كنا نحتاج إليه منك؛ رأيك وعلمك!

وهكذا يتواصون بالصبر فبقيت أنفسهم كالمعدن النفيس لا تصدأ أبدا. وإذا كانت الضربة القوية تفتت الزجاج فإن الضربة نفسها تصقل الحديد!!

خلاف لايفسد للود قضية

يقول الحق سبحانه:

﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1].

الأصل فى الدعوة أن تكون بالفعل.. قبل أن تكون بالقول.. وبالالتزام.. قبل أن تكون بالكلام.

لقد كان المسلم يضرب فى مناكب الأرض تاجرا.. فكان بأمانته وصدقه قدوة تسير على الأرض جيئة وذهابا.. فيراه الجاهلون بالإسلام صورة للأدب العالى.. فيدخلون فى دين رأوه واقعا.. لاجدلا فارغا يثير غبارا يحجب الحق فلا تراه الأعين...

هذا هو الأصل وعلى أساسه مضى السلف الصالح.. فكانت بلاغة الصمت.. أقوى من كل دليل. فإذا فرضت ظروف الدعوة الملحة الدخول فى جدل يستهدف الحق.. فلا مانع.. بشرط أن يتم ذلك الجدل على أوفى صور الحسن والكمال. وهذا بعض ما يفهم من الآية الكريمة.. وفى ثلاث كلمات منها:

إنها تقول لنا: لا تجادلوا أبناء عمومتكم من أهل الكتاب على صورة من الصور إلا على الصورة التى .. هى .. أحسن..

فلم تقل الآية. « بما هى». بل قالت: ﴿ بالتى هى﴾. و«التى» أصل فى باب الموصولات.. فهى غير «ما»التى تكون موصولة ونافية..

وإذا فالتعبير بها: إشارة إلى ضرورة أن يكون جدالٌ أهل الكتاب على نحو أصيل..لا دخيل..جدال يعلو فوق المراء.. والعناد.. وفوق الألغاز.. والمغالطات. وليكن نصا فى المراد.. كما أن « التى» نص فى باب الموصول.

---

(١) العنكبوت: ٣٦.

وإذا تعددت نماذج الحسن فى باب الجدال.. فينبغى أن يكون بالتى «هى» دون غيرها.. أحسن النماذج جميعا.. بحيث لا يتردد المجادل بين صعود.. وهبوط.. تحت تأثير مزاجه. بل عليه أن يلتزم بالطريقة التى هى.. بالذات.. أحسن الطرق.

فإذا تم الحوار على هذا النحو الأصيل.. بقى الود موصولا.. وبقيت احتمالات العودة إلى مثله قائمة.. غدا أو بعد غد.

إنه خلاف.. ولكنه لا يفسد قضية الود.

فإذا خرج الطرف الثانى عن الخط.. فلجأ إلى الخلط.. فقد وجب على المسلم الملتزم أن ينهى حوارا يضر ولا ينفع.. ليظل وفيا لمبدئه فى احترام آراء الآخرين والفرار بهم من جدل عقيم لا يخدم قضية الحق.

ومعنى ذلك أن المجادل المسلم الذى التزم بأعلى صور الجمال والكمال.. عليه ألا يقابل السيئة بالسيئة.. فليس ذلك من طبعه.. ولا من وظيفته.. فإذا ظلم الطرف الآخر.. وحاول تحكيم الهوى.. فالحل الأمثل هو: الانسحاب.. ثم إعلان الإسلام الذى به نؤمن بكل رسل الله.. إيمانا يصير به المسلم شخصية رحبة.. عالمية بل تاريخية.. لا تخضع للهوى المتقلب.. وإنما هى تدور مع الحق حيث دار.. منطلقة من قاعدة راسخة كانت بها شاهدة على الناس.

المحكم والمتشابه

يقول الحق سبحانه:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[1].

تشير الآية الكريمة إلى أن القرآن آيات محكمات هن أصل القرآن، وأخر متشابهات..

محكمات واضحات لائحات. تضمنت العقائد والعبادات.. والمعاملات وجميع الشرائع المنظمة للسلوك الفردى والجماعى. مما هو نص فى موضوعه لا يحتاج إلى تأويل..

أما المتشابه فهو: ما يحتاج فى معرفته إلى تأمل وتدبر. فقد تشتمل الآية على أكثر من معنى يدل عليه اللفظ ولا يجد عقلك مرجحا لبعضها على بعض. وقد تكون الآية وصفا لجلال الله سبحانه وتعالى.. فلا يستطيع عقلك القاصر تصور كنه العظمة الإلهية..

وقد تساءل الباحثون: لم كان فى القرآن متشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم ولم يكن كله محكما يستوى فى فهمه كل الناس.. لا سيما وهو كتاب هداية وإرشاد.. والمتشابه يحول دون الهداية؟

وأجاب العلماء بأجوبة تدل على حكمته سبحانه إذ أنزل كتابه محكما.. ومتشابها من أجل الهداية ذاتها:

لقد كان كلام العرب قسمين:

١ـ ما يفهم معناه سريعا.. ولايحتمل غير ظاهره.

---

(١) آل عمران: ٧.

٢ـ ما جاء بطريق الكتابة والمجاز.. والمعانى فيه متزاحمة. وهذا القسم هو المستحسن عندهم.

فأراد الله تعالى إنزال القرآن بالنوعين تحقيقا للإعجاز فكأنما يقول لهم: عارضوه بأى النوعين شئتم.. ولن تفعلوا! على أن احتياج بعض الآيات إلى التأمل وإعمال الفكر باب إلى نهضة علمية يتنافس فيها المتنافسون لتحصيل فنون من العلوم متنوعة تعينهم على فهم كتاب الله تعالى... وإلا.. فلو جاءت كل الآيات ظاهرة المعنى.. لايستوى العلماء والجهلاء. ولماتت الخواطر بتوقف البحث والاستنباط.

فإن نار الفكر ـ كما قيل ـ تقدح زناد المشكلات والمعضلات ولهذا قال حكيم:

عيب الغنى: أنه يورث البلادة ويميت الخواطر.

وفضيلة الفقر: أنه يبعث على إعمال الفكر واستنباط الحيل فى الكسب.

وتوضح الآية الكريمة اختلاف ردود الفعل أمام هذه الآيات: فأما مرضى القلوب: فقد أخذوا الموقف الذى ينسجم مع قلوبهم التى زاغت عن الحق. فأداروا ظهورهم للحقائق الواضحة.. ثم أثاروا الغبار.. فى حملة تضليل.. معتمدين على جهل العامة الذين لا يصدقون بما لم يصل إليه علمهم ولا تدركه حواسهم. أما الراسخون فى العلم فقالوا: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾

لقد أدركوا ما فى النسق القرآنى من رحمة بالأمة.. وتنشيط لملكات الخير فيها.. فكانوا كما علمهم الرسول:

ما عرفتم من محكمه.. فاعملوا به. وما جهلتم من متشابهه.. فآمنوا به. ولقد عملوا.. وآمنوا..

أما الزّائغون.. فكانوا أسوأ عملا.. وأكثر زللا. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾.

فى ظلال القرآن المكى

تأملات فى سورة الماعون

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ① فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ② وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[1].

تمهيد:

كان هناك حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما .. على معنى أن ٣٦٠ حزبا سياسيا تتوزع مشاعر الناس حينئذ .. فيعفرون جباههم التى خلقها الله تعالى عالية.. يعفرونها لحجر أصم! فلما جاء محمد ﷺ بالتوحيد.. لم يعد لهذه الأصنام وجود. وأصبحت الأمة بحقيقة التوحيد حزبا واحدا هو الذى فاز وحده بالفلاح: ﴿ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾.

ولم يرتفع المسلمون إلى هذه القمة اعتباطا، أو بالوراثة على نحو ما قال الشاعر:

ونرعى حمى الأقوام غير محرم علينا ولا يرعـــى حمانا الذى نحمى

إن الصدفة.. أو التحكم لا يصنعان مجدا.. فإذا مات الطبيب فليس من حق ولده الفاشل أن يفرض نفسه طبيبا.. دون أن يحمل شهادة فى الطب.. لابد أن يسير على درب أبيه ويدفع الثمن.

[ركائز التقدم]:

وقد وضعت السورة الكريمة للوصول إلى القمة ركائز منها تنطلق الأمة إلى الآفاق العليا:

---

(١) سورة الماعون

أولا: تكافل اجتماعى ينشر جناحه على الضعفاء ليأخذوا مكانهم بين إخوتهم عاملين مثلهم.

وثانيا: صلة بالله تعالى عن طريق الصلاة.. طاعة لله تعالى.. وما تثمره من تعاون على البر.. والخروج من سجن الأنانية ليصبح مافى بيتك ومافى جيبك متاحا وفى متناول يد أخيك المحتاج.

من فقه السورة الكريمة:

ونطالع فى مستهل السورة الكريمة هذا التساؤل: **﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾**

ويتوقع خالى الذهن أن يكون الجوب مثلا: ذلك الذى يقتل نفسا بغير حق.. أو من يرتكب الفاحشة مثلا. ولكن الحق تعالى يقول: **﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ. وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾**.

فالذى يدع اليتيم ينهره.. ويرده.. وكان ذلك الدع عادة له.. مكذب بالدين كله.. مفلس بالتالى من كل عناصر الخير: ذلك بأنك باسم الإسلام مكلف بتكريمه. وإلا.. فباسم المروءة والنخوة. فإذا لم تحسن إليه.. وزدت على ذلك أن نهرته وأهنته فلا دين لك.. أو لك دين.. لكنه بلا روح.

مقياس الإيمان:

النفوس مجبولة على أن تعطى غيرها مقابل عوض وعلى أنها تخاف ممن له شوكة وبأس. واليتيم والمسكين.. لا يخيفان.. فلا عوض لديهما يعودان به على من أحسن إليهما. فمن أعطاهما فهو المؤمن حقا.. ومن منعهما فهو مكذب بالدين وإن نقش اسمه فى قائمة المسلمين.

ثم يتوعد الحق سبحانه وتعالى المصلين الذين لم تنههم صلاتهم عن الأنانية والبخل... ومن سمات هؤلاء الذين يتوعدهم سبحانه: أنهم ساهون عن الصلاة.. فهم المنافقون.. وليسوا من الساهين فيها.. كم يحدث للمؤمن أحياناً.. ثم يجبر بسجود السهو.

منهج علمى فى التثبت قبل الحكم:

وكما يقرر المفسرون: فى السورة الكريمة منهج علمى يلزم كل باحث أن يجمع أطراف النصوص فى القضية المعروضة ولا يقتصر على بعضها. بدليل قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ آية مستقلة ولاوقف عليها وإلا فسد المعنى كما قال الشاعر الإباحى:

دع المساجد للعباد تسكنها ... وسر بنا إلى حانة الخمار يسقينا

ما قال ربك ويل للأولى سكروا ... بل قال ربك ويل للمصلينا

ويلزم المنهج ثانيا المسلم ألا يشهد على مجرد قول يسمعه إلا إذا قيل له اشهد. أو إلا إذا سمع الحديث من أوله إلى آخره.

موسم الحج وشائعات المغرضين:

وهذا الذى أشارت إليه السورة الكريمة لفت نظر للأمة الإسلامية اليوم.

فموسم الحج هو الفرصة الإيمانية التى تعيش فيه أمجد أيامها: فالكعبة المشرفة قلب الأمة النابض.. وهى - كما قيل بحق - تسحب الحجيج. من كل فج عميق.. أى تسحب الدم من شرايين الأمة.. ثم لتصبه من جديد فى هذه الشريين.. التى تعود بعد الفريضة محملة بعناصر الحياة الراشدة..

ولكن بعض النفوس المغرضة تتخذ من التفريق وسيلة لإشاعة الخوف والقلق. يخلطون قولا باطلا.. بقليل من الحق.. بغية التشويش.. وعلى صورة تطمس الحقائق فلا تظهرها بكل زواياها.. لخدمة أغراض دخيله..

والسورة الكريمة تنذر كل مسلم؟ ويل للمصلين.. ويل للحجاج.. ويل لأى حزب.. ويل لهم جميعا إذا احتطبوا فى حبل الشاعر الماجن الذى أسلفنا قوله.. ثم كانوا كهذا الذى إذا رأى حسنة أخفاها .. وإذا رأى سيئة نشرها..

ويفرض علينا التوحيد.. أن نستمسك بثمرته وهى: الوحدة.. هذه الوحدة التى نعيش اليوم أعيادها.. وحرام ألا نستمتع بها.. وإذا كان الحق تعالى فى هذه السورة الكريمة يتوعد المرائين: والذين يمنعون حتى المغرفة.. والإناء.. فكم يكون الوعيد بالنسبة لهؤلاء الذين يمنعون لواء الأمن أن يرفرف على الأمة فى عيدها

الأكبر.. إنهم لأشد جرما .. وأكبر إثما.. فليحذر الذين يخالفون عن أمره.

ولنذكر ذلك الرجل المؤمن الذى وهب حجته لمن لم تقبل حجته.. ونتأمل كيف وثقت آصرة الإيمان بين المؤمنين إلى هذا الحد.. الذى وصل فيه الانتماء إلى أمة الخير ذروته.. وإنه لنموذج حى.. يسفه أحلام أناس يظلمون .. ثم يتحدثون عن العدل. ويتحدثون عنه بحرارة بينما يضمون نعجة الغير.. إلى نعاجهم!!

تأملات فى سورة الضحى

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1].

اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلتين. أو ثلاثا فأتته امرأة فقالت: يامحمد: ما أرى شيطانك إلاقد تركك. لم يقربك ليلتين أو ثلاثا. فأنزل الله ﴿والضحى﴾[2].

كان الموقف شديد الوطأة على قلب رسول الله ﷺ لتأخر نزول الوحى الذى كان أنس حياته وروحها..

وزاد من شدته أن امرأة عابثة.. وربما كانت من بنات عمه.. تنوب عن المجتمع الوثنى فى إعلان الشماته.. ولكن الوحى الأعلى يقطع الطريق على الأعداء فيسكت نيرانهم التى أججها الحقد الدفين: ﴿وَالضُّحَىٰ. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

أبدا.. ماودعك ربك لافى ليل.. ولا فى نهار.. وما أبغضك. ولئن تأخر عطاؤه قليلا.. ولحكمة.. فهو كائن لا محلة وما تزال عناية الله ترعاك فى الدنيا.. بانتصارك.. وإعلاء كلمة الحق.. وفى الآخرة بما هو خير وأبقى.. حتى ترضى والواقع خير شاهد بعطاء ربك الذى لم يتخل عنك لحظة: [لقد كان أبو طالب إذا جن الليل وحل وقت النوم يتركه مع أولاده ينامون. حتى إذا أخذ كل مضجعه عمد عمه إلى واحد من أبنائه فأقامه وأتى بمحمد ﷺ ينام موضعه وذهب بولده ينام مكان محمد ﷺ حتى إذا كان هناك من يريد به سوءا فرأى مكانه فى أول الليل ثم جاء من يريده، بسوء وقع السوء بابنه ويسلم محمد ﷺ.

قال المفسرون: ومن لطيف الخطاب ورقيق الإيناس ومداخل اللطف: أن

---

(١) سورة الضحى.

(٢) متفق عليه عن جندب البجلى.

الموادعة تشعر بالوفاء والود. فأبرزت فيها كاف الخطاب: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أى لم تتأت موادعتك وأنت الحبيب والمصطفى المقرب.

أما قلى: ففيها معنى البغض فلم يناسب إبرازها ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ إمعانا فى إبعاد قصده ﷺ بشىء من هذا المعنى كما تقول لعزيز عليك: لقد أكرمتك.. وما أهنت..

لقد قربتك.. وما أبعدت.. كراهية أن تنطق بإهانته وكراهيته أو تصرح بها فى حقه. فأنت تصرح بكاف الخطاب فى التكريم.. وتحذفها فيما لا يرضيه.

وكيف يظن ظان أن ربك قلاك.. وحياتك فى ظل مولاك جنة وارفة.. وعطاء بلا حدود؟ وأنت معترف بذلك يامحمد تماما.

ألم يجدك يتيما فأواك فى بيوت كنت فيها واسطة العقد ـ وخرجت منها سيد الغد.. وكافل اليتامى؟ ووجدك ضالاً غافلاً ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان فصرت إمام المرسلين. ووجدك عائلا.. فقيرا.. فأغناك.. بنفس عرضت عليها الدنيا.. فأبت.. واتخذت من القناعة كنزا لا يفنى؟

وإذا كان ذلك حقا.. وإنه لكذلك ـ فخذ سبيلك القاصد شاكرا بعملك هذه النعم... فارحم اليتيم.. ولا تعبس فى وجهه.. وأما السائل فلا تزجره.. والأمر على ما قيل:

[إن لم تكن ورق يوما أجود بها   للسائلين فإنى لين العود]

[لا يعدم السائلون الخير من خلقى   إما نوالى وإما حسن مردود]

فليسعد النطق إن لم يسعد الحال..

وحين يتم ذلك بتوفيق ربك.. فأكرم بها من نعم.. تعلنها..

تأملات فى سورة الشرح

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑥ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[1].

فى سورة الضحى.. وفى معرض تقرير نعم الله تعالى على رسوله ﷺ قال المفسرون: إن الله تعالى قال: فآوى.. فهدى.. فأغنى.. ولم يبرز سبحانه ضمير الخطاب هكذا.. فآواك.. وأغناك.. لئلا يثقل عليه المنة بنعم مادية..

أما فى سورة ﴿ألم نشرح لك صدرك..﴾ فقد أبرز الضمير لأنها نعم معنوية خص الله بها محمدا ﷺ ولا بأس من إبراز الضمير إشعارا بهذه الخصوصية.. ولما لهذه النعم من آثار عظيمة: وأولها: شرح الصدر..

لقد جعل الله صدره رحيبا.. وسيعا.. بالإيمان.. وثمرته من المعرفة.. والحكمة.. حتى وسع الصديق .. والعدو جميعا.. وهرعت إليه قلوب الملايين.. وانتهت عنده أنات المعذبين فوسعها كلها..

وإذا كان شرح الصدر عدة الدعاة فى مواجهة الصعاب.. فإن إعفاءه من مشقة البلاغ.. يصرف الهم القاتل عنه حتى يواصل المسير نعمة أخرى وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

ثم رفع الله ذكره فى العالمين كما قال حسان:

أغرّ عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبى إلى اسمه ... إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

ومن شأن هذه الرعاية الإلهية أن تجعل ثقتك بربك بالغة درجة التشبع..

---

(١) سورة الشرح.

لتظل على رجاء السعة بعد الضيق.. والرخاء بعد الشدة.. والفرج بعد الكرب.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

بل إن اليسر يأتى متزامنا مع العسر وفى صحبته.. حتى لا ينفرد الضيق بقلبك.. وعدا من ربك مؤكدا. بل إنهم يسران.. مع عسر واحد.. ولن يغلب عسر يسرين!

وأمر آخر: فالعسر محصور بالألف واللام.. فهو محدود.. مهما بدأ شديداً خانقاً..

أما اليسر. فهو منكر.. حر من قيد الألف واللام .. فهو واسع.. واسع.. ضخم.. ضخم.. يحتوى العسر.. فإذا هو زاهق!

وإذا كان الأمر كذلك.. فاستدبر مؤامرات البشر.. وأقبل على ربك سبحانه.. متوجا عمرك كله بعمل الخير.. وإياك والفراغ القاتل..

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ إذا فرغت من عمل الدنيا.. فخذ حظك من عمل الآخرة ليكون وقتك مشغولا: إما للدنيا.. وإما للدين ولا مكان هناك للفراغ.. أو الملل.. لأنك راغب إلى الله.. ليل. نهار.. وفى معيته سبحانه نجاة من الفراغ..

قال بعض المفسرين: وفى قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ حل لمشكلة الفراغ التى شغلت العالم: حيث لم تترك للمسلم فراغا فى وقته... لأنه إما فى عمل للدنيا. وإما فى عمل للآخرة.

وقد روى عن ابن عباس؛ أنه مر على رجلين يتصارعان. فقال لهم: ما بهذا أمرنا بعد فراغنا... وروى عن عمر أنه قال: إنى لأكره لأحدكم أن يكون خاليا سبهللا لا فى عمل دنيا ولا فى دين.

ولهذا لم يشك الصدر الأول فراغا فى الوقت.

تأملات فى سورة عبس

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[١].

فى سبب نزول هذه السورة ذكر المفسرون: أن رسول الله ﷺ كان مشغولا بدعوة صناديد قريش. فجاءه ابن أم مكتوم. وكان أعمى. وقال: أقرئنى يارسول الله. وعلمنى مما علمك الله. وكرر ذلك.

فعبس رسول الله معرضا عنه.. منصرفا لما هو مشغول به من دعوة أعيان قريش. فنزلت.

والآيات عتاب لرسول الله ﷺ لأنه تجاوز الأولى به حين أعرض عن رجل معذور بعماه الذى لم يمكنه من فقه الموقف..

إنه كفيف البصر.. ولكنه وقاد البصيرة.. أبصر الحق وآمن به. وجاء ـ مع عماره ـ طلبا للمزيد.. وهو أقرب إلى الفطرة وأبعد عن السلطان والجاه فليس لديه حرص على منصب يضيع ولا جاه يهدر... وقد وجد فى الدين عزته ورفعته.

كيف تنصرف عنه.. مقبلا على قوم عميت بصائرهم.. فلم يدركوا الحقيقة.. ولم يبصروا مارآه الأعمى؟!

من غير شك كان انصرافك طمعاً فى إيمان القدوم ولكن.. أى شىء يدريك أنهم سيؤمنون ؟ وأى شىء يجعلك داريا بحال ابن أم مكتوم..؟ لعله لو أقبلت عليه أن يتطهر ويزداد إيمانا ولعله أن يسمع بتوجيهك صوت فطرته آتيا إليه من الأعماق.. فتنفعه الذكرى؟

---

(١) عبس : ١ : ١٢.

وفيم الاهتمام بصناديد قريش ومهمتك معروفه: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾.

وقد بلغت.. فلا بأس عليك لو أعرضوا..

إنما البأس فى الاعرض عن هذا الأعمى.. الضعيف.. الذى أسلم فعلا.. وجاء يسعى رغم ظروفه الصعبة.. والخشية تملأ قلبه حرصا على مزيد من اليقين.

[كلا..] فذلك مالا يكون: إنه تذكرة.. وأنت مذكر.. فمن شاء اتخذ إلى الهدى سبيلا.

ومع هذا العتاب.. فقد بقى الرسول ﷺ كما وصفه ربه: ﴿على خُلق عظيم﴾.. وفى هذا الموقف أيضا كما أشار إلى ذلك المفسرون.

أولا: اكتفى رسول الله ﷺ بتقطيب الجبين ولم يقل شيئا.. وابن أم مكتوم لا يرى ذلك العبوس.

ثانيا: إن تقطيب الجبين وانبساط أسارير الوجه لحزن أو فرح يكاد يكون جبليا مما كان منه ﷺ.

ثالثا: كان ﷺ مطمئنا إلى رسوخ الإيمان فى قلب ابن أم مكتوم.. بخلاف هؤلاء الذين يتألف قلوبهم.

رابعاً: وقد صارت لابن أم مكتوم مكانة خاصة بسبب هذا الموقف وكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول: إذا رآه: «مرحبا بما عاتبنى فيه ربى».

ويبقى الدرس الكبير للدعاة.. وما يجب عليهم من تلطف بالضعفاء والإقبال عليهم.. والتودد إليهم.

تأملات فى سورة الكافرون

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾[1].

فى سبب نزول السورة الكريمة سورة الكافرون ذكر المفسرون:

أن المشركين عرضوا على رسول الله ﷺ أن يترك دعوته ويملكوه عليهم أو يعطوه من المال ما يرضيه فرفض... فقالوا: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فسكت عنهم فنزلت.

ومعنى السورة:

يا أيها الكافرون: اقتراحكم هذا مرفوض.. ولن أفعل ماتطلبونه منى لا فى الحال.. ولا فى الاستقبال..

وأنتم أيضا لن تعبدوا فى المستقبل إلهى الذى أدعوكم إلى عبادته وليكن معلوما لكم أن موقفى هذا وموقفكم ثابت لن يتغير، فكونى لا أعبد ماتعبدون.. صفة دائمة أبدا.. لن تزول ورفضكم لعبادة ربى أيضا وصف ثابت لكم لن يتغير.. وهذا ما أفادته الآية الرابعة والخامسة.. وهما: **﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾**. **﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾**.

حيث أكدت الآية الرابعة.. ثباته ﷺ على التوحيد. ورفض الشرك. **﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾**.

وأكدت الآية الخامسة استمرار شركهم: **﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾**.

والأمر على ما يقول سبحانه: **﴿فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون﴾**.

---

(١) سورة الكافرون.

وإذن فالخلاف واضح بين الفريقين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

فهو الانفصال.. بلا اتصال.. فلا تطلبوا المستحيل.

أجاب المفسرون أن السورة وردت فى جنس الكفار. وإن أسلموا فيما بعد فهو خطاب لهم ما داموا كفاراً.

وقيل: إن المراد من حقت عليهم كلمة ربك منهم بالبقاء على الضلال الذى استحقوه بإصرارهم.

وفى السورة من الناحية العملية كما جاء فى تفسير أضواء البيان: فيها منهج إصلاحى هو: عدم قبول أنصاف الحلول فى القضايا المصيرية لأن فيما عرضوه مساواة للباطل بالحق.. وتعليق للمشكلة بلا حل حاسم.

فجاءت السورة الكريمة وأنهت المعركة بهذا التمايز بين الفريقين.. معلنة نهاية المهادنة وبداية المجابهة.

تأملات فى سورة قريش

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[1].

تمهيد:ـ

أحصى بعض الباحثين الآيات المكية الواردة فى شأن العبادة فوجدها ٢١٠ آية وأحصى الآيات المدنية النازلة بشأن العبادة أيضا فألفاها ٧٨ آية.

فكانت آيات العبادة المكية أكثر.. وأستنتج من ذلك:

اتساع معنى العبادة ليشمل الفرائض التى نزلت بها الآيات المدنية ويشمل أيضا مجموعة القيم التى يجب أن يحصن المسلم بها نفسه... والتى تترسب فى أعماق القلوب التى تشعر بجلال الله ـ تعالى ـ وجماله شعوراً يملك عليها أقطارها .. وهو ما توحى به الآيات المكية التى تزرع فى النفوس الخشية واليقين... والخضوع لله القادر الخالق الرازق المهيمن... وتلك هى القوى المحركة التى ينطلق بها المسلم عاملا آملا.

سورة قريش:

فى تعليل هذه التسمية تقول كتب اللغة:

التقرش: الوحدة والائتلاف. أو التكسب. أو نسبة إلى سمك القرش الذى يأكل ولا يؤكل ويعلو ولا يعلى عليه.

وكأن القرآن الكريم يقول لقريش ـ كما قيل بحق ـ لماذا لا تكونون عند حسن بكم: إنكم طلائع الوحدة... فلماذا لا تجيبون داعى الله الذى جاءكم بما يدعم وحدتكم؟ ثم إنكم تجار طوافون فى البلاد ـ وإذا كان الأمر كذلك. فلماذا لاتتاجرون تجارة تنجيكم من عذاب أليم: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي

---

(١) سورة قريش.

سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

الأمن السابغ: هذه النعمة الكبرى

إلى جانب ما يوحى به أسم «قريش» من دعوة الإيمان بالله تعالى.. فقد كان هناك مبرر كاف يحملهم على الإيمان وهو ما أشارت إليه السورة الكريمة:

١ - صيرورة رحلة الشتاء إلى اليمن... ورحلة الصيف إلى الشام مألوفة لهم: مأنوسة الطريق. بعد ما كانت مخوفة محفوفة بالمخاطر.

٢ - اطعامهم بعد أن جاعوا فأكلوا الجبيف والعظام.

٣ - جعل الله الحرم آمنا:.. بينما يتخطف الناس من حولهم.

تأملات النسق القرآنى:

أولا: نلاحظ تنكير لفظ «جوع» ولفظ «خوف» والتنكير هنا للتفخيم.. فلم يكن جوعا عاديا.. كما يجوع الناس.. على رجاء أن يشبعوا فى يوم قريب. ولم يكن كذلك خوفا مما يعرض للناس.. ثم ينحسر. كأنما هو سحابة صيف.. ولكنه الجوع الذى اضطرهم إلى أكل الميتة.. والخوف الذى انعكس على الباطن قلقا وتمزقا...

وإذن فالمخاطبون بهذه النعم أدرى الناس بعظمها.. لأنهم أشد الناس إحساساً بها.

ثانيا: يطالبهم الحق تعالى أن يعبدوه شكرا لهذه النعمة السابغة.. ولا يجعلوا شكر نعمائه أنهم يكفرون ويكذبون.

لكنه تعالى وهو يدعوهم لما يحييهم يقول لهم: **﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾** البيت الذى صار مستراد آمال الإنسان فى كل زمان ومكان.. الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا.. وجعله قياما للناس.. وإذا كنتم أول المنتفعين بالبيت العتيق.. فلتكونوا أول العابدين.

ثالثا: نلاحظ أن نعمة الإطعام بعد الجوع.. جاءت فى إطار الحديث عن نعمة الأمن.. أول السورة وآخرها.

---

(١) الصف: ١١

فإيلافهم الرحلتين يعنى أنها صارت شيئا مألوفا.. لا يكلفهم عناء... ولا حراسة. أى أن أعصابهم التى كانت تحترق من قبل خوفا.. وأموالهم التى كانت تنفق صيانة.. توفرت لهم اليوم.. بهذا الأمن السابغ..

الأمن الذى جاء بعد الخوف.. وإذن فإن له مذاقا خاصا على ما يقول الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

ومجىء الحديث عن الإطعام مندرجا بين أحاديث الأمن.. يؤكد ما ذكره الأطباء قديما وحديثا من ضرورة توفر الأمن من لتتم عملية التمثيل الغذائى بنجاح... فقد يكون الغذاء دسما حافلا بصنوف العناصر اللازمة لبناء الجسم.. لكن توتر الأعصاب.. وشيوع الخوف مانع من الهضم وبالتالى مانع من استفادة الجسم بما فيه من طعام وشراب!

وإذا كان الأمن فى البيت العتيق اليوم نعمة كبرى تتيح للحجيج من كل فج أداء الفريضة على أوفى معانيها..

فإن كل مسلم فى فجاج الأرض جميعا يتحمل نصيبه من المسئولية ليبقى ذلك البيت مثابة للناس وأمنا..

وليبقى موسم الحج عيدا أكبر نستروح نسماته جميعا.. ألا وإن نعمة الإطعام بعد الجوع... والأمن بعد الخوف لتنسحب على كل من يؤدى الفريضة شكرا للمنعم سبحانه... هذا الشكر الذى يأخذ صورته العملية بالتمكين لعنصر الأمن فى مهبط الأمن ومستراد الأمل.

يقول الرازى:

(اعلم أن الإنعام على قسمين: أحدهما: دفع ضر وهو ما ذكره فى سورة الفيل.

والثانى: جلب النفع. وهو ما ذكره فى هذه السورة.

ولما دفع الله عنهم الضر. وجلب لهم النفع. وهما نعمتان عظيمتان. أمرهم بالعبودية. وأداء الشكر ﴿**فليعبدوا رب هذا البيت...**﴾ الآيات.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الصوت والفتنة النائمة	٧٠
صور من جدال البطلين	٧٣
نور الحياة	٧٥
ثمرة الإيمان	٧٧
آية بين فهمين [١]	٨٠
آية بين فهمين [٢]	٨٦
المبادىء والمنافع	٩٣
أطباء . . وصيادلة	٩٥
حتى لا تكون التحية زهرة بلا رائحة	٩٧
التثبت قبل الحكم	٩٩
المعادلة الصعبة	١٠١
من هنا تبدأ الحضارة	١٠٣
النظرية والتطبيق	١٠٥
العمل فى الإسلام بين الكم والكيف	١٠٧
لا يأس مع الإيمان	١٠٩
التطفيف كالجنون . . فنون	١١١
حياة بلا حياة	١١٣
التقوى وكرامة الإنسان	١١٥
من جزاء المؤمنين	١١٧
الفتح المبين	١١٩
من صور التيسير	١٢١
الليلة المباركة	١٢٣
ليلة ارتفع بها قدر الإنسان	١٢٥
الفتح المبين	١٢٧
نعمة الرسالة	١٢٩

الموضوع	الصفحة

فى ظلال القرآن المكى

كتب المؤلف

كتب مطبوعة

١ ـ تربية الأولاد فى الإسلام.

٢ ـ نوح عليه السلام.

٣ ـ نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية.

٤ ـ صفحات من تاريخ المرأة المسلمة.

٥ ـ اليهود فى الكتب المقدسة.

٦ـ الخطابة فى موكب الدعوة.

٧ ـ شبابنا بين العلم الناقص والعلم الجامد.

٨ ـ عزة المؤمن.

٩ ـ من فقه عمر.

١٠ ـ تأملات فى السيرة.

١١ ـ من الذى يغير المنكر وكيف.

١٢ ـ فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام.

١٣ـ مؤمن آل فرعون. . . ودروس فى الدعوة.

١٤ ـ نحو مجتمع بلا مشكلات.

١٥ـ نحو أسرة بلا مشكلات.

١٦ ـ أصول الدعوة من قصة إبراهيم عليه السلام.

١٧ ـ الحج بين الدوافع والمنافع.

١٨ ـ الهجرة والإعداد للمستقبل.

١٩ ـ سائح فى رياض القرآن.

٢٠ ـ من فقه الصيام.

كتب تحت الطبع

١ ـ الدعـــــوة بين كيد الطغاة وحكمة الدعاء.

٢ ـ ثمرات من حدائق السنة.

٣ ـ فى رحاب السنة.

٤ ـ الإعلام الإسلامى فى مواجهة الإعلام المادى.

٥ ـ تقدمة التلاوة.

٦ ـ حماية العرض فى الإسلام.

٧ ـ تأملات فى غزوة تبوك.

٨ ـ فواتح فى أدب الصحبة.

٩ ـ من مجالس العلم.

١٠ ـ دروس تصلح بها النفوس من الدين والحياة.

سيرة ذاتية

د. محمود محمد محمد عمارة

- من مواليد «سلامون» مركز الشهداء. منوفية عام ١٩٢٩.
- حاصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين عام ١٩٥٦.
- حاصل تخصص التدريس من كلية اللغة العربية عام ١٩٥٧.
- عين مدرسا فى نفس العام بمعهد أسيوط الدينى - ثم معهد دسوق - معهد منوف - ثم أعير للجامعة الإسلامية بليبيا من سنة١٩٦٢-١٩٦٦م وعاد إلى معهد بنى مزاز ثم معهد فتيات المعادى ثم منوف.
- حصل على الماجستير فى الدعوة ١٩٧٠.
- حصل على الدكتوراه فى الدعوة ١٩٧٥
- عمل مدرسا بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة وأستاذا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- كان عضوا باللجنة المركزية وناقش الرئيس الراحل أنور السادات - أثناء اشتراكه فى وضع دستور مصر - فى ضرورة أن تكون الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع ووافق على اقتراحه.
- يكتب فى الصحف والمجلات منذ أن كان طالبا بالثانوى.
- اشترك فى بعض المؤتمرات الإسلامية خارج مصر.